

808.83 A51A

العامري ، محمد أديب .
شعاع النور وقصص أخرى .

808.83

A51A

NOV 28 '62

NOV 17 '62

24 JAN 1975

~~22 SEP 1987~~

JAFET LIB.

25 JUL 1978

808.3

A517SA

محمد أديب العامري

شعاع النور

وقصص أخرى

ملف من الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

الإهداء :

إلى روح أمي
التي شقيت ليسعد غيرها

مقدمة

ليس الأمر احترافاً للقصة أو انصرافاً إليها ، ولكنه إشارة إلى ما كنت أحب أن ينصاع له هذا الباب الأدبي من مثل وهدف في هذه الفترة الراهنة من تاريخ الدنيا ، لو قدر لي أن أحترف القصة أو أنصرف إليها .

ولذلك سبب ؛ فإن الحياة كما درجت إلى اليوم يمثلها أشخاص هذه الأقاليم أكثر مما يمثلها أى شئ آخر ، وهؤلاء في الغالب قد انحدروا إلى مستوى مؤثس من الحياة . ولكنهم لا ييأسون ، فإن هنالك شعاعاً من النور ينظم سيرة الحياة منذ كانت ، وهذا الشعاع ذاته هو الذى يومض في نفوس هؤلاء الناس الذين أقدمهم إليك وأصلهم بك ، فيحملهم على الصبر والأمل والنضال ورفع مستوى الحياة شيئاً فشيئاً .

ولولا هذا الوميض الذى يستمد نوره وحرارته من طبيعة الحياة الخالدة المتسامية ، لما كان سبيل هؤلاء الناس إلا أن يتلاشوا في العدم .

ولكنهم لا يتلاشون ؛ بل يستمرون فتطرد الحياة بجهدهم نمواً ورقياً ، إلى أن تصبح جديرة بحياة « الناس » .

عمّان

١٩٥٣ / ٩ / ١

الفهرس

الصفحة	القصة
١١	١ - شعاع النور
٢٠	٢ - ليلة فى الخريف
٣١	٣ - فقير
٣٨	٤ - الحرب
٤٦	٥ - صوم دائم
٥٤	٦ - الجندى المشوه
٦١	٧ - بين الحرمين
٧٠	٨ - ملاك الحب
٧٧	٩ - ثراء... وشرف
٨٢	١٠ - يوم الميلاد

شعاع النور

فتحت الأم عينها صباح ذلك اليوم منطلقة الروح بادية البشر تكاد نفسها تفلت من جوانحها خفة وأملا ونشاطاً .

وأحست في نفسها ذلك وعجبت منه ، فقد كانت دائماً تنهض كثيية النفس كسيرة الفؤاد . لكنها نهضت ذلك اليوم مسرعة ناشطة وتناولت المرأة فنظرت فيها ، فافتقدت التجهم الذى يغشى محياها وبعض التجاعيد التى أخذت السنون الأخيرة تخطها على وجهها . ولقد تساءلت في نفسها عن سبب مرحها ذلك الصباح ، كما كانت تتساءل دائماً عن سبب هذه الكتابة الملازمة والانكسار الظاهر ، فتعزوه إلى أنها فقدت زوجها قبل الأوان وإلى أن الدنيا خلفتها وحيدة لا تعينها فى شىء على حاجات ابنها وابنتها .

وأرادت أن تطرد من رأسها فكرة الحزن ، لتستسلم إلى البشر والمرح والانطلاق الذى أفاقت عليه ذلك الصباح ، فأيقظت ابنها واستعادت ما أفاقت عليه فقالت :

— اسمعى يا جميلة ! لقد رأيت فيما يرى النائم شعاعاً من الضوء لم أر له مثيلاً من قبل . شعاعٌ قوىٌ وهّاجٌ يمتدُّ من نقطة فى الأفق ، ويتجهُ إلى كل مكان فى الجو ، فيحيل ظلامه إلى نور وقتامه إلى إشراق ووهجة . ورنوت إلى مصدر الضوء الذى كاد يزيغ بصرى فلم يمت وجه شاب مقطب الجبين حديد النظرات يمتلئ عزمًا وقوة . وتفرست فى الصورة أستوضح معالمها لكن الصورة لم تكن واضحة المعالم . كانت أقرب شىء إلى صورة عزمى

أخيك . كأنها صورته يا ابنتي . أفقت من نومي مسرورة فكأنى رأيت
أخاك بعد كل هذه الغيبة الطويلة .

استمعت جميلة إلى هذا وهى ما بين اليقظة والنوم ، فإنها لم تكن تعرف
النهوض مبكرة كأُمها ؛ كان عملها المرهق المضنى يؤخرها إلى ضحى النهار .
فما أتمت الأم كلماتها حتى تمتمت الابنة بكلام غير مسموع ؛ واسترسلت
فى النوم مرة أخرى .

وساء الأم بعض الشيء أن لا تهتم جميلة بالحديث إلا إلى هذا الحد ،
لكنها عادت فذكرت أن ابنتها لا تستطيع النهوض المبكر . فنظرت إليها فى
حنان وأطالت النظر . لقد كانت صبية جميلة ، بل كانت بارعة الجمال .
فأضاف منظر ابنتها إلى انطلاق روحها ونشاطها .

ونهضت من فراشها وأخذت تعمل فى البيت على عاداتها . فقد كان عمل
البيت أحب الأعمال إليها . ولو كانت غرفه الأربع الكبيرة ممتلئة بالأثاث
لكانت قادرة على أن تحفظه نظيفاً ، فكيف به وغرفه تكاد تكون خالية ؟

ومضت أمور النهار عادية ، لكن ذاكرتها ظلت تستعيد النور الذى تراءى
لها فى الصباح . تذكره فتهب ذكره نفسها الحبور والطفرة . وتذكر بصفة
خاصة الوجه الذى تراءى لها أن الضوء ينبثق منه ، كما تذكر متاعب ابنتها
فتعود إلى تبجهم محب ووقار مهيب . وكانت تجلس إلى جوار ابنتها جميلة فى
سكون آخر ذلك النهار حين شقت الابنة ذلك السكون فقالت :

— أليس الأفضل أن نموت يا أماه ؟ !

قالت جميلة هذا وهى توشى حاشية ثوب ثمين دون أن ترفع بصرها إلى أمها .

ووقع هذا القول من الأم موقعاً هائلاً مروعاً واعتلجت به نفسها اعتلاجاً

متناقضاً ، لكنها قالت :

— لم يا ابنتى ، لماذا تتحدثين هكذا ؟ سمعتك تقولين ذلك مرة من قبل . ألا يجب أن نعيش يا ابنتى ، ألا نستحق الحياة ؟

قالت الأم ذلك دون أن تنظر هى أيضاً إلى ابنتها . لكن صوتها لم يكن ثابت النبرات ، وإنما كان فيه تردد وخفوت ، كأن الأم أيضاً لم تؤمن بأنهما يجب أن تعيشا .

— نستحق الحياة يا أماه ، ولكن هذه الحياة لا تستحقنا !

فنظرت الأم إلى ابنتها مسرعة فرأتها عاكفة على توشية حواشى الثوب تنظر إلى ما توشى به نظرة دقيقة لا يقطعها الكلام . لم تفهم كلام ابنتها كل الفهم ، ولكنها لمحت ما فيه من معنى غريب ، ومع ذلك فقد أحست أنها فهمته على غرابته ، وترددت فى نفسها نفحة من الفرح أن تكون ابنتها على هذا القدر من الذكاء .

ورمت الأم بدورها بصرها إلى ثوب آخر بيديها كانت تعين ابنتها على جمع أجزائه . وساد الغرفة التى يجلسان فيها صمت عميق لا يُسمع فيه إلا حفيف هذا الثوب الحريرى الذى توشى الفتاة أطرافه . لكن هذا الصمت ما لبث أن انقطع ، فقد رفعت الأم بصرها مستعجلة على أثر شهقة باكية ندت عن ابنتها . ورأت ابنتها تذرف دموعاً حرة متوالية على خديها المتوردين . كانت عيناها ممتلئتين بالدموع .

وهبط قلب الأم فى جوفها وتراخت مفاصلها ، فلم تقل شيئاً ، وإنما مالت إلى وسادة قريبة منها وألقت برأسها عليها وولت ابنتها ظهرها ، وراحت هى أيضاً تذرف دموعاً متداركاً تحرص على أن لا تعلم ابنتها من أمره شيئاً .

وعاد الصمت العميق يثقل الجو لا يقطعه إلا صوت صبية الحى فى الشارع الأسفل ، إذا حل موعد اجتيازهم لنوافذ البيت فى تراكضهم حول الحى

كله ، وإلا هديرٌ بعيد لصوت البحر المجاور .

وكانت الأيام شتوية رازحة الجو ، والوقت أصيلاً تؤذن شمسهِ بالمغيب . وكان ذلك نحو الوقت الذى تزور فيه جميلة وأُمها الناس أو يزورهما فيه الناس ، فتتبدد بهذه الزيارات كآبة الجو الذى يُعرف به أصيل النهار فى المدينة . ولكن ذلك اليوم كان خلواً من الزائرات . وأحسّت جميلة أن هذا ربما كان السبب فى أن توجه إلى أمها تلك العبارات اليائسة فتحملها على هذا الحزن الشديد الذى تفر منه بالنوم — أو بالتظاهر بالنوم .

وأعادت جميلة فى نفسها ما قالت إلى أمها فلم تجد إلا أنها عبرت عن الواقع ، عن نفسها على أقل تقدير . فإذا كانت الحياة شقاء كهذا الشقاء وتعباً كهذا التعب ، فلم لا تموت ؟ وإذا كان ذلك شأن الناس جميعاً ، فلم يتعلقون بالحياة ؟

والتمست طريقها فى هدوء فاجذبت لحافاً غطت به أمها ، ثم أضاءت مصباحاً من البترول وأخذت تتم وشيها . وانساب ذهنها فى كل مجال يهيجس ويفكر ويحلم .

كانت بارعة الجمال ، فإن لها هذا الشعر الأسود الفاحم ، يعلو جبيناً أبيض ناصعاً . وإن لها لجسماً لا تنقصه أماراة من أمارات الجمال : قامة رشيقة متناسبة الأجزاء ، وعينان واسعتان دعجاوان ، ونظرات تغرى بالحب . كانت مضرب المثل عند صبايا الحى فى خفة الظل وحدة الذكاء وبراعة الحديث . ولكن هذا كان كل شيء !!

وأخذت هى تعدد ما سلبتها إياه الأيام من مزايا لو تمت لزفت إلى أحسن شاب فى المدينة . ومرت فى ذهنها مسرعة على كل نقائصها ، وانتهى تفكيرها بسرعة إلى هذا الفقر الذى يشملها ، والذى يقف فى طريقها إلى حياة زوجية

هائلة ، تسعد بها هي وأمها .

وزفرت الأم النائمة زفرة طويلة قطعت على الابنة هواجسها . وانقلبت الأم في مضجعها ، وغطت رأسها ، وجميلة تنظر من أسفل عينيها إلى ذلك كله في عطف وحب يقتلان النفس . ثم ما لبثت الأم أن غرقت في نوم عميق ، فاسترسلت جميلة مرة أخرى في هواجسها ، وقالت لنفسها متبرمة ، في صوت يكاد يكون مسموعاً .

— ما فائدة الجمال إذا كانت الفتاة منزوية في بيت لا يصل إليه إلا الضعيفات الخليلات من السيدات ؟ لو كان أبي حياً لكان ذلك أجدر أن يعرف الناس بنا ، ولو كان أخى هنا لكان من الممكن عن طريقه أن يعرفني أصدقاؤه . أما هؤلاء الزائرات . . ماذا يستطعن أن يفعلن . . ؟ وإذا ظلت أعمل في هذه المهنة الشاقة التي تذهب بالدم والبصر معاً فماذا عسى أن يكون مصير هذا السعال الذي يتردد في صدري . . .

وهنا سعلت . وألح عليها السعال فخنقته حتى لا تعكر على أمها نومها ، فنهضت من مكانها وأخذت تحوم في غرف البيت الموحشة ، ثم فرشت لأمها حشيرة بجوار منامها وأيقظتها لتنام في المكان الممهد ، ففعلت الأم دون أن تنبس ببنت شفة . وأعدت لنفسها فراشاً آخر واستسلمت للنوم ، لكن أجفانها لم تطعها في ذلك الوقت المبكر من الليل . ففضت تهجس وتقلب في فراشها حتى ذهب معظم الليل ، فنامت .

وأصبح الصباح فنهضت الأم على حلم الأمس . أجل إن الحياة لشقاء كلها ، ولكن الدنيا لم تكن متجهمة بهذا القدر حين كان زوجها حياً . وتذكرت أنها لم تكن المرأة الوحيدة التي فقدت زوجها وهي صغيرة السن . ورنّت ببصرها إلى السنوات التي يمكن أن تعيشها من حياتها الباقية فاهتزت اهتزازة المحموم

ثم عادت إلى شعاع النور مرة أخرى . لقد بان لها بالأمس أن الوجه وجه ابنها عزى فكيف تفسر الحلم . وخطر لها أن تسأل الشيخ العراف عن معنى ما رأت فهذا خاطرها وأسرت في نفسها أن تطلع ابنتها على جميع هواجسها هذه ، حين تخلو إليها وتجدد الابنة في الاستماع إلى كلام أمها .

وخلت بابنتها في جلستهما العادية للخياطة المستمرة . وأسرت إليها بما رأت بالأمس من حلم ، وبما قرّ عليه رأيها من سؤال الشيخ فقالت جميلة :

— قد يكون الوجه وجه عزى ، وقد يكون الضوء المنبعث أملنا الوحيد في هذه الحياة ، لكن عزى لا يلبث أن يخرج إلى الحياة حتى تغمره الحياة بمطالبها فلا يفرغ لأحد .

استمعت الأم إلى هذا فكأنها لم تعرفه من قبل ، وأحست بكيانها يتداعى . ومضت الأيام ، فزفت جميلة إلى شاب غنى في المدينة ينتمى إلى واحدة من أعرق العائلات ، لكنها رأت عجباً مما عرفت . لقد كانت مخدوعة بفقرها ، فإن هذا الفقر كان ينلها وينخفض بصرها ، لكنها الآن عرفت كيف تتراكم الثروة باعتصار جهود الفقراء ، وكيف يبني المجد العائلي على خداع الناس الضعفاء . كانت تظن أن زواجها من غنى سيرفع مقامها ويبدلها يسراً بعد العسر وراحة بعد التعب . لكنها عرفت بعد الزواج مشقة لم تعرفها من قبل ، وضعة لم يكن لها بها عهد من قبل .

وأسرت لأمها يوماً فقالت :

— من كان يظن يا أماه أن يدى هاتين اللتين شككتا الخياطة والتطريز ستشكوان أشق الأعمال وأشدّها إرهاقاً ، وأن عيني ستتقرحان من السهر في سبيل إنهاء هذه الأعمال ؟

قالت الأم وهى تبدى رباطة جأش مصطنعة :

— هكذا كل فتاة يا ابنتى . زوجها هو موثلها وله ولأولاده تعمل ،
وسيكون هذا كله كأنه لها .

وفكرت جميلة فى هذا فلم يرق لها . لم تجد من الضرورى أن يشقى إنسان
واحد مثلها فى سبيل أربعة يضمهم البيت ليس منهم من تحس بواجب حقيقى
نحوه إلا ابنها الذى ولد حديثاً .

واتخذت الأم ركناً قصيماً من البيت فأخذت تبكى فى صمت . كانت
تلك ضربة القدر الثانية بعد موت زوجها . أفيكون مصير جميلة بحلاوتها
وذكائها وشبابها أن يزيدا الزواج إرهاقاً ، وقد كانت ترجو لها
منه الفرج ؟

وجعلت الأم بعدها تزور ابنها لتعينها فى عمل بيتها . واستمر جسم الأم
فى الذوبان والضمور ، لكن شيئاً واحداً ظل يعيد الحرارة إلى دمها والنشاط
إلى أعضائها . ذكرى عزى وذكرى شعاع النور .

وقالت لنفسها يوماً فى صوت مسموع : « إن البنت لا تفيد أهلها فى هذه
الحياة ، حتى ولا تستطيع أن تبقى أمها عوادى الزمن إن هى عدت » .

وأحست بمستقبلها يكشر أنيابه فى وجهها ويغدر بها أواخر عمرها ،
فتموت ميتة ذليلة ، لكن شعاع النور أضاء سريرتها .

وأخذت ترقب خروج ابنها إلى الدنيا . . .

وخرج عزى تلك السنة فارتبط بعمل وأخذ يعيش مع أمه فى بيت واحد .
وأحست الأم بالحياة لأول مرة .

وقالت لابنها يوماً وهى تحدثه :

— أحب أن أرى لك زوجة وأبناء يا بنى . لقد بلغت الخمسين عاماً
وإنى لأخشى الموت كل يوم .

قال عزى :

— أليست الأعمار بيد الله يا أماه ؟ إنك ما زلتِ صغيرة السن .

— لست صغيرة يا بنى . إن الخمسين سنة التى عشتها ليست ككل خمسين سنة . إن بقية عمرى فى أبنائك . وإنك أنت الشاب لتتحيا بأبنائك فقط .
ودمعت عينها فأحس ابنها حرج الحديث فانصرف عنها وهو يعدها بأن يتزوج .

وأخذت صحة الأم تتقهقر . وكان كل ما يأمل عزى أن يمسك عمر أمه سنوات حتى يعوض عليها من تعبها السابق راحة وهمها الأول طمأنينة ، وبؤسها الماضى سعادة .

لكن دم الأم تطرق إليه الفساد ، فأخذ كيانه ينهار متداركاً . وأحس عزى هذا فبذل كل ما فى وسعه ووسع الأطباء ليطيل حياتها . لكن نور هذه الحياة الغالية أخذ يغيب ، وقيل إن آخر ما ينقذ حياة الأم نقل الدم إليها من جسم حى ملائم .

ونقل الدم على كره من الأم من جسم عزى إلى جسمها ، لكن ذلك لم يفد شيئاً يذكر . أجل إنها ارتدت إلى الحياة يومين كانت تحس أثناءهما أن شباب ابنها قد دخل إلى كل عضو من أعضائها . وضحكت وأشرقت أسارير وجهها . لكن علائم الموت أخذت تبدو للعيان مرة أخرى .

وفى غرفة نائية فى أحد المستشفيات اضطجعت الأم على سريرها يجلس عن يمينها عزى وعن يسارها جميلة .

قالت الأم وهى تحمل نفسها على الكلام فى إعياء شديد :

— اسمع يا بنى . اسمعى يا ابنتى . أحس حالتى اليوم غير حالاتى السابقة فى كل مرض أصبت به ثم شفيت منه .

وأراد عزمي أن ينفي فكرة الموت عن نفسه وعن أمه فقال :
— أنت بخير يا أماه .

قالت وقد أخذ الكلام يثقل في لسانها :

— بخير يا حبيبي ، والتفتت إلى ابنتها فقالت : « بخير يا حبيبتي » .

ثم رفعت صوتها وهي تبسم وقالت :

— أرى شعاع النور يا ولدى . . .

ولمح عزمي في كلماتها هذه خمسين سنة تنطوي من التضحية المستمرة
وأحس الدنيا تسلبه حرصه على أن يخدم أمه كما خدمته ، فسألها وهو يشرق
بدمعه :

— أراضية عنا أنت يا أماه ؟

وحاولت الأم أن تقول شيئاً فلم تستطع . فإنها كانت تجود بآخر أنفاسها
في الحياة ، لكن زفرة قوية صدرت عنها . كانت تلك الزفرة تحمل آخر
كلماتها في هذه الدنيا .

قالت — « آه » وخفضت رأسها علامة الرضا ومعها خفضت بصرها
لآخر مرة وإلى الأبد .

وعلى أثر ذلك خرجت من فم عزمي كلمة ممزوجة بنشيج مسموع استمر
وقعه في أذنيه طوال عمره :

— نشكرك يا أماه ! نشكرك !

ليلة في الخريف

لمكسيم غوركي

مرت بي في أحد أيام الخريف حالة مزعجة لا تسر ، فقد هبطت ليلة إحدى المدن وليس في جيبي دائق أنفقه ولا أعرف مكاناً آوى إليه . فبعت في الأيام القليلة الأولى جميع ما يمكن أن أستغني عنه من ملابسى ثم اندفعت إلى حى من المدينة يكثر فيه ، في فصل الملاحة ، الهرج والمرج ويعبج أثناءها بالحياة . وكان ذلك في أواخر تشرين الأول . أخذت أجر قدمى وأبحث في التراب الرطب عن شىء من الطعام ، ثم رحت أدور ما بين البيوت المهجورة والمستودعات ، وكان يخطر ببالي أثناءها أن الحصول على وجبة كاملة من الطعام شىء حسن — ما أحسنه !

وخطر ببالي أنه من الأسهل في حضارتنا الراهنة أن يرد الإنسان جوع عقله من أن يرد جوع جسمه . إنك تعجتاز الشوارع بين بنايات حسنة من الخارج وحسنة من الداخل ، فيما تستطيع أن تقول ، بلا خشية من الخطأ . بل الأمر على العكس من ذلك فإن منظر الأثاث في الداخل قد يبعث في ذهنك آراء عن العمارة والصحة وموضوعات أخرى مثلها عالية ؛ وقد تصادف ناساً ذوى لباس نظيف فاخر يبعث الدفء — ناساً مفرطى الأدب يتحولون عنك بلباقة لا يشعرونك معها أنهم مطلعون على حالتك السيئة أو وجودك المنكود .

إن عقل الرجل الجائع أصبح من عقل الرجل الذى يجد كفايته من الطعام .
ولك من هنا أن تستنبط استنباطاً بارعاً ، وهو أن الجوع مبرر ! وكان الليل
يرخى سدوله والمطر ينهمل والرياح تهب من الشمال عاصفة ، تصفر بما تمر منه
من الدكاكين والمداخل والنوافذ ، وتمر فوق النهر فتحدث زبدًا رابيًا وأمواجًا
متلاحقة تتدافع بمناكبها . وكان النهر يختبئ لأنه يحس قدوم الشتاء ، وينحدر
مسرعاً كأنه يفر من الثلج التى تحمله معها ريح الشمال . وكان الجو ثقيلاً
مظلماً تتساقط منه قطرات من المطر لا تكاد تراها .

كان كل ما حولى مفلساً . فالشجر الهرم بائس ينوء بالريح العاصفة ،
والزورق البالى مقلوب على شاطئ النهر . كان كل شيء قاحلاً وشعرت كأني
أنا الوحيد الحى ، وتصورت موتاً بارداً ينتظرني .

وكانت سنى آنثى الثامنة عشرة — عمر ملائم ! وتابعت السير فى التراب
البارد الرطب . وكانت أسناني تصدح على شرف البرد والجوع ! وعندما كنت
أفتش بعناء عن شيء أتبلغ به خلف أحد أقباص القمامات لحت وراءه شبح
امرأة جاثمة على الأرض وقد ابتلت ملابسها بماء المطر وغار رأسها بين كتفيها .
فوقفت وراءها أتبين ما تصنع ، فإذا بها تفتش فى القمامة بيديها ، فتقدمت
منها وجشمت إلى جوارها ثم سألت فجأة :

— لماذا تصنعين هذا ؟ فصرخت صراخاً قصيراً ونهضت على ساقها
بسرعة ثم رمت ببصرها إلى وقد جمحظت عيناها الخضران من الرعب ،
فرأيت فيها فتاة تراوح سنها سنى ، ورأيت وجهاً لطيفاً وخطته ثلاث علامات
كبيرة من الوشم الأزرق . وقد شأنها الوشم مع أن علاماته الزرق كانت موزعة
بانتظام عجيب . كانت العلامات ذات حجم واحد وكانت اثنتان منها
تحت عينيها وواحدة على جبينها فوق قناة أنفها . كان هذا التناسق
ولا وراء دليلاً على براعة فنان موهوب فى تشويه الملامح البشرية !

نظرت إلى الفتاة جزعة ثم ذهب رويداً ما بها من جزع ونفضت التراب عن يديها وعدلت عصاها برأسها ثم جثمت وقالت :

— أظن أنك أنت أيضاً تبحث عن شيء تأكله . احفر بيديك إذن فإن يدي تعبتان . احفر هناك . وأومأت برأسها إلى كومة من القمامة . هنالك خبز ولا ريب ، ونفاق ، فإن تلك الكومة تبدو ذات غناء .

فبدأت أحفر ثم اقتربت بعد قليل فجلست إلى جانبي وأخذت تساعدني . وعملنا صامتين . ولست أذكر اليوم ما إذا كنت قد فكرت آنئذ في القانون الجزائي أو في الأخلاق أو في الملكية أو فيما إلى ذلك كله مما يجب أن يفكر فيه المرء كل لحظة من حياته ، كما يرى كثيرون من رجال الخبرة والحياة . أما أنا فأقول بكل ما لي من رغبة في التزام الصديق إنني لم أستطع سبيلاً إليه . بل يجب عليّ أن أعترف بأنني كنت منهمكاً في الحفر في القمامة إلى حد نسيت معه كل شيء آخر إلا هذا : ماذا يمكن أن يكون داخل هذه القمامة ؟ وأرخى الليل سدوله وتكاثف الضباب البارد الرطب الحائل اللون ، واستمر في التكاثف من حولنا . وأخذت الأمواج تضطرب أكثر من ذي قبل بأصواتها الجوفاء . وبدأ المطر ينهمل على جوانب القمامة بصوت متزايد مشدد . ووصل آنئذ إلى سمعي صوت الحارس من بعيد وقد أخذ يضرب الأرض بعصاه . وهمست مساعدتي قائلة : « هل للقفص قعر ؟ » همست بذلك فلم أفهم ما تقول فظللت صامتاً . ثم عادت فقالت : « هل للقفص قعر ؟ إن كان له قعر فسنحاول العبث به لكسره . إننا نحفر في القمامة ولا ندرى ما إذا كنا في النهاية نصل إلى ألواح من الخشب . وكيف نزرعها عندئذ . أرى أن تكسر القفل فإنه قفل قديم » .

إن النساء قلما يخطر ببالهن فكر مفيد ، ولكن هذه الأفكار قد تغزو عقولهن أحياناً كما ترى . كنت أقدر الآراء المفيدة قدرها دائماً ، وهنا حاولت

أن أستفيد منها ما استطعت .

فعندما وجدت القفل جذبته ونزعته . فانحنت شريكتي وانسلت في الفتحة كالأفعوان وقالت بصوت منخفض :

— إنك حاذق !

وكانت بادرة من المديح من امرأة في تلك الأيام أعز على من أى مديح يكيله لى رجل ، ولو كان أبلغ الخطباء قدماء ومحدثين معاً . لكنى كنت ساعثتذ فى وضع أقل ملائمة للحبور منى الآن ، فلم أعبا بمديح زميلتى وسألتها بإيجاز ولهفة :

— هل وجدت شيئاً ؟

فأخذت تعد ما وجدناه فى لهجة فاترة لاهياة فيها ، وقالت :

— سلة مملوءة بالقناني ، فرو كثيف ، شمسية ، دلو من الحديد .

كان كل ذلك لا يؤكل . فشعرت أن آمالى قد تبددت ، ولكن صاحبتى سألت مسرعة فى شىء من الحيوية .

— آه ها هنا شىء !

قلت : ماذا ؟

قالت : خبز . رغيف ، غير أنه رطب ، خذه .

وسقط رغيف على قدمى ثم تدحرج إليها . فتناولته ونهشت منه قليلا حشوت به فى وأخذت أمضغ .

— تعال . تعال . أعطني شيئاً أنا أيضاً . يجب أن لا نبقى هنا . أين

نذهب ؟

تفحصت المكان كله ولكنه كان معتماً رطباً عاصفاً .

— انظر إن هنالك قارباً مقلوباً فلنذهب إليه .

قلت : فلنذهب . ومضيئا .

أخذنا نهش فريستنا ، نملأ أفواهنا بقطع كبيرة منها . واشتد المطر وهدر
النهر وتجاوبت أصدااء صغير طويل ساخر كأنه صادر من رجل عظيم لم
ينحف شيئاً ، أخذ يهدر ساخراً بجميع الناس وبهذه الريح الخريفية الراحبة ،
وبنا نحن . بعث هذا الصغير في قلبي الخوف ، فأخذ يخفق بشدة . مضيت
مستمراً في الأكل ومضت الفتاة تمشي إلى شمالي ، خطاها إلى خطاي .
— ماذا يسمونك ؟

سألتها هذا السؤال ، فإني لم أكن أعرف اسمها .

— نتاشا .

أجابت بذلك مسرعة وهي تمضغ مضغاً له صوت مرتفع . ثم نظرت إليها
وحملت في الضباب المتكاثف أمامي ، وأحسست مخايل مستقبلي الذي يعاديني
تتهكم بي على صورة غريبة فاترة .

وأخذ المطر يلطم خشب القارب بلا انقطاع كما أخذت طقطقته الناعمة
تثير في أفكاراً سوداوية ؛ وأخذت الريح في تسللها إلى خشب القارب من
الأسفل تصفر من شظايا خشبه المتداعي بصوت يبعث في النفس الحمول
والانزعاج . وكانت أمواج النهر تتناثر على الشاطئ ، وكان صوتها متوتراً إلى
حد ثقيل متعب موثس . وكان صوت المطر ينخرط في صوت الأمواج فيحدث
تنهداً متاقلاً يطفو على القارب المقلوب — تنهد الأرض وقد أضرب بها وأنحلها
هذا التغير الذي تتعرض له من الصيف الدافئ المشرق إلى الخريف البارد
الرطب المفعم بالضباب . وعصفت الريح على الشاطئ المهجور وعلى النهر
المزبد — عصفت وناحت نواحها السوداء المرهق .

وكان وقوفنا ملتجئين إلى القارب خلواً من الراحة فقد كان القارب ضيقاً

رطباً وكانت قطرات الماء تتساقط من بين الألواح التي تؤلف قعره وكانت الريح تمر منه مندفعة . جلسنا صامتين نرتجف من البرد وتذكرت آنئذ أنني أرغب في النوم . أما نتاشا فقد اتكأت بظهرها على مقدمة القارب والتفت على نفسها في شكل طابة صغيرة وعانقت ركبتيها بيديها ، وألقت بذقنها إليهما ثم أخذت تحديق في النهر كما يحديق الكلب بعينين منفرجتين انفراجاً شديداً ، وبدأت عيناها على صفحة وجهها المصفر كبيرتين من جراء العلامتين الزرقاوين المخطوطتين تحتها . ولم تتحرك قط . أدخل هذا السكون والصمت إلى بالتدريج خوفاً من جارتى . فأردت أن أتحدث إليها ولكنني لم أعلم كيف أبدأ . وكانت هي البائدة فقالت :

— ما أشد الحياة لعنة !

قالت ذلك بوضوح وتفلسف في لهجة واثقة عميقة . لم تكن كلماتها تدمراً ولا شكوى ، إذ كان فيها شيء كثير من عدم المبالاة . فكرت هذه الروح الساذجة على قدر ما تفهم ومضت في الاستنباط ، ثم عبرت عن استنباطها تعبيراً لم أستطع معارضته خشية أن أناقض نفسي ، ولذلك سكت ، واستمرت هي جالسة لا تتحرك وكأنها لا تشعر بوجودي . ثم استمرت في القول :

— حتى إذا أعولنا ونققنا نقيقاً فماذا بعدئذ ؟

قالت ذلك في هدوء وتفكير وكأنها لا تتدمر . وكان واضحاً أن هذه الفتاة تعبر عن حالها هي ، فاستنبطت واقتنعت بأنها إذا أرادت أن تعجب نفسها سخرية الحياة وهزلها فلم يكن أمامها إلا أن تصيح وتنق .

وكان تفكيرها الواضح هذا حزيناً كل الحزن مؤذياً لى كل الأذى ، وشعرت أنني إذا استمررت في الصمت شيئاً آخر اندفعت إلى البكاء ، وكان من المخجل أن أفعل ذلك أمام امرأة ، ولا سيما وأنا لم تكن هي نفسها تبكي ، ولذلك صممت على أن أتحدث إليها .

— من الذى قذف بك وحدك هاهنا ؟

سألتها ذلك ولم أملك آئذ أن أوجه شيئاً أرق أو ألطف معنى .

فأجابت قائلة فى صوت باهت ذى نبرة مستوية :

— فعل ذلك كله باشكا .

— ومن هو باشكا هذا ؟

— حبيبى . . . كان خبازاً .

— وهل كان يضربك غالباً ؟

— كان يفعل عندما يكون سكران . . . غالباً .

ثم انفتلت نحوى فجأة وأخذت تتحدث عن نفسها وعن باشكا وعن علاقتهما المتبادلة . كان خبازاً وكان ذا شاربين أحمرين وكان ماهراً فى العزف على البانجو . جاء ليراها فسرّها منظره جداً إذ كان شاباً مرحاً ، وكان يلبس ملابس نظيفة لطيفة ، صدره ثمنها خمسة عشر روبلا وحذاءين طويلين . وهذه الأسباب أحبته وتولى الإنفاق عليها ، ثم أصبح ينفق ما عندها من دراهم كانت صديقاتها يودعنها إياها ، ثم أخذ يسكر بهذه الدراهم ويضربها . ولم يكن ذلك شيئاً لو لم يصاحب غيرها من الفتيات أمام عينيها .

قالت :

— أليس هذا تحقيراً . لست أسوأ من تلکم الفتيات ، وبالطبع لم يكن لذلك من معنى إلا أنه كان يضحك منى . ذلك اللئيم ! وأول البارحة طلبتُ إلى سيدتى التى أخدم عندها أن أخرج قليلاً ، فذهبت إليه وهناك وجدت دنكا تقعد إلى جانبه مخمورة ، وكان هو أيضاً مخموراً ، فقلت له أيها النذل أنت ! فضربنى وشد شعرى . ولم يكن ذلك شيئاً إزاء ما وقع بعدئذ . فقد مزق كل ملابسى وتركنى كما ترانى الآن . كيف كنت أستطيع الظهور

أمام سيدتى ؟ لقد مزق كل شىء . . . فستانى ومعطى - كان معطى جديداً .
ثم مزق نقابى . . . أواه ربى ! ماذا ينتظرنى بعدئذ .
ثم استغاثت بصوت مخزن كئيب .

وعصفت الريح . وأخذ الجو يبرد ويقسو ، فأخذت أسنانى تصطك ،
وأخذت هى تلف نفسها لتتجنب البرد ، والتصقت بى أشد ما يمكنها أن تلتصق ،
حتى كدت أرى لمعان عينيها فى الظلام . وهنا قالت :

- أى مخلوقات تعيسة أنتم أيها الرجال ! وددت لو أحشركم جميعاً فى
أتون . لو أقطّعكم إرباً إرباً . لو أبصق فى فم أحدكم وهو يموت لا أبدى له
شفقة البتة . أيها الثعالب الدنيئة ! تتمسكون وتتمسكنون ، ثم تراوغون وتحركون
أذناكم كالكلاب الذليلة ، ونحن المغفلات نسلم لكم بأنفسنا ثم تنتهى
الأمور معنا ولا تلبثون أن تطؤونا بأقدامكم .

وهكذا أمطرتنا وابلاً من اللعنات علواً ودنواً . لكن لم يكن هناك عنف
ولا حقد ولا كراهية لهؤلاء التعساء الأراذل . إن لهجة كلامها لم تتلاءم قط مع
ألفاظها ، كانت هادئة وكانت رقة صوتها جد مسكينة .

ومع ذلك أحدث هذا فى نفسى أثراً أعمق من أكثر الكتب والمقالات
تشاؤماً . كنت قد قرأت كثيراً من ذلك ولا أزال أقرؤه إلى اليوم . إن الحزن
الذى يبيده شخص يموت أثراً من أوصاف الموت الدقيقة الرائعة .

وشعرتُ بالتعاسة حقاً ، وكان مصدر ذلك البرد أكثر مما كان مصدره
كلام جارتى . همهمت بهدوء وصررت بأسنانى . وشعرت فى اللحظة نفسها
تقريباً بذراعين صغيرتين حولى لفت إحداهما عنقى وجاءت الأخرى فوق
وجهى . وفى الوقت نفسه أيضاً صدر سؤال لطيف فى صوت أخوى :

- ما الذى يؤلك ؟

وكنت على استعداد للاعتقاد بأن شخصاً آخر لا نتاشا يسألني هذا السؤال . فإنها هي التي قالت منذ لحظة بأن الرجال أراذل أدنياء ، وأعربت عن رغبتها الملحة في هلاكهم جميعاً . ثم أخذت تتحدث بسرعة .

— ما الذى يؤلك ؟ قل هل أنت مبرود هل أنت مثلج ؟ ما أغربك ! تجلس هناك صامتاً كالبومة الصغيرة . كان عليك أن تقول منذ زمن إنك مبرود . تعال نم على الأرض ، استلق وسأستلق أنا هنا . كيف ترى ؟ ضع ذراعيك الآن حولي ، شد بهما أكثر ، كيف ترى الآن ؟ إنك ستدفاً حالا ثم سنضطجع ظهراً لظهر وستمر الليلة بسرعة . سترى . هل كنت أنت أيضاً تشرب الخمر ؟ هل قُذِف بك من بيتك . هيه ، لا بأس ! ثم مهدت منامى وأراحتنى وشجعتنى .

يا للعنة ؟ أى عالم من الهزء والسخرية هذا الذى أراه فى حادث واحد . تصور : أنا منهمك فى هذه اللحظة بمصير الإنسانية . أفكر فى قلب النظام الاجتماعى وفى الثورات السياسية . أقرأ جميع الكتب المليئة بالحكمة . كنت فى هذه اللحظة أحاول بكل ما أستطيع من قوة أن أجعل نفسى « قوة اجتماعية كامنة » كما يقولون ؛ وبدا لى أنى بلغت جزءاً من غرضى . ومهما يكن من أمر فقد وصلت إلى أن أرى أنه كان لى الحق التام فى أن أعيش ، وأنه كان عندى من العظمة ما أستأهل من أجله حياتى . وكانت لى قدرة القيام بدورى التاريخى . ها هنا امرأة تدفئنى بجسمها . مخلوق تعيس أبق محطماً لا مكانة له فى الحياة ولا قيمة . لم أفكر قط فى مساعدتها حتى ساعدتنى هى . وحتى لو خطرت لى مساعدتها لما عرفت كيف أفعل . كنت أتوقع أن يقع لى ما وقع فى حلم مزعج أو كابوس . أما أن تلتصق بى امرأة لتدفئنى ، وأن يغمر نفسها الدافئ وجهى فأمر لم يخطر لى ببال .

واستمرت الريح فى غضبها وعصفها ، وسقط المطر على القارب وصفقت

الأمواج وكان كلانا يعانق الآخر ، ومع ذلك يرتجف من البرد . لم يكن ما حدث كله إلا واقعياً . ومع ذلك فإنى أثق أن أحداً لم يحلم حلماً مزعجاً كهذا . كانت نتاشا دائماً تتحدث عن شيء ، تتحدث بلطف وعطف لا يقدر عليهما إلا النساء . وقد اضطرم قلبي من وقع كلامها ، وأخذ شيء فيه يذوب وينحل . ثم أخذت الدموع تتساقط من عيني كالبرد ، تغسل من قلبي كثيراً مما علق به من سوء ، تمحو منه كثيراً من البلاهة ، كثيراً من الألم والحبث اللذين كانا ملازمين له قبل تلك الليلة . إن نتاشا هي التي هدأت نفسي .

— تعالى . تعالى . يكفي أيتها الصغيرة ! لا تتأثري . إن هذا كاف وسيمنحك الله منحة أخرى غير تلك ، وستبدل الأمور وتحلين في محلك اللائق . كل شيء سيعود إلى حاله الحسنة .

ثم أخذت تقبلني . قبلتني مراراً . . . قبلات حارة . . . وكان ذلك كله دون غرض .

كانت تلك أولى القبل التي منحني إياها امرأة ، وكانت أحلى القبل كذلك ، لأن القبل التي جاءت بعدها كلفتني جميعاً كلفة مروعة ، ولم تكسبني شيئاً مقابل ذلك .

— تعالى لا تلتاعى أيتها الفتاة ! سأنظر في أمرك غداً إذا لم تجدى مكاناً . فهمست في أذني همساً هادئاً مقنعاً كأنما جاء في حلم .

واضطجعنا هناك إلى الفجر .

ولما طلع الفجر تسللنا من وراء الزورق وانحدرنا إلى المدينة . ثم ودع أحدهما الآخر وداعاً أخوياً لم نلتق بعده قط ، مع أنني فتشت في كل مكان

نصف سنة عن نتاشا اللطيفة تلك ، نتاشا التي صرفت معها ليلة الخريف التي
وصفت الآن .

فإن كانت مائة - وخير لها أن تكون - فطيب الله ثراها ، وإن كانت
حية فليمتعها الله بالراحة والهدوء وليحرمها الشعور بالهوة التي تتردى فيها ،
لأن ذلك ألم ممض لا فائدة منه ، إذا كان بد من أن تكون الحياة على هذا
النحو .

فقيه

كان الوقت أواخر أيام الحرير ، وكان الجو فاتراً كالحاء لا يبعث على النشاط ، فالشجر قد عرى من ورقه والأرض قد غشيت بالتراب الأغبر العبوس . وكانت علائم الشتاء تجتاح الجو ، فقطع الغيوم تتلاحق في السماء ، والعجاج يشور من كل جانب ، والطبيعة خاوية لا توحى بشيء .

وكان صاحبه منهمكاً في عمله العادي ، مديراً للمدرسة ، والناس قد انفضوا عنه بعد أن ازدحموا على غرفته طوال النهار يلتمسون لأبنائهم سبيلاً إلى المدرسة . وكان قد ناله إعياء شديد من عمل ذلك النهار كله ، فقد سمع كثيراً من أولياء الطلاب بأنه متحيز لا يقبل في المدرسة إلا أبناء الجاه والموسرين . وبدا له أن كل شيء يكاد يطبق عليه . كان مشغولاً ، ولكنه لم يكن يريد في تلك الحالة أن يعمل شيئاً ، فقد خطر بباله آنئذ أن المرء يُحمل في حياته على التصرف بشكل لا يرضاه هو لنفسه ، وأخذ يرى مع أولئك الذين اتهموه بالتحيز في النهار أثناء عمله ، أنه حقاً قد ينحرف عن الحق ، لا يملك من أمر نفسه شيئاً ، وإنه يجب أن لا يلومهم في اتهامهم .

وأنه لفي هذه الأفكار وقد شخص ببصره من نافذة إلى خارج الغرفة التي يعمل فيها ، لا تطرف له عين ، إذ دخل عليه الحاجب يقول له ، وهو يظهر الاشمئزاز :

— إن في الباب رجلاً لا أدري من هو يريد أن يدخل .

قال الحاجب هذا وهو يزوى حاجبيه ، على شكل أدرك منه صاحبه معنى اشمزاز نفسه . فقد كانت هذه عادة الحاجب حين كان يستأذن لرجل تبدو عليه المسكنة ، فقال له :
— أدخله ، لا بأس .

فخرج الحاجب مسرعاً وقد خلّى صاحبه أسير فكرة جديدة عبرت بباله ، فإن حال هذا الحاجب لا تبعد كثيراً مهما يكن الأمر عن حال هذا الرجل الذى سيدخل عليه بعد قليل ، فأن يظهر الحاجب اشمزازاً منه ، أو تبرماً به ، دليل على أن هذا الحاجب يحارب فى هذه الحياة نفسه . أليس جديراً به أن يكون عطوفاً على أمثاله من الناس الذين يحيون حياة الفقر والقلق التى يحياها هو .

وفىما هو يسرح ذهنه فى هذه الناحية ، أدبرت قبضة الباب ذات ايمين وذات الشمال محاولةً للدخول ، وتخلخل الباب دون الذى يريد أن يدخل ، ولكنه لم يفتح . فلفتت هذه الحركة نظر صاحبه ، فانقطع عن تفكيره ، ورفع رأسه ونظر إلى الباب فإذا بشيخ يفتح الباب متردداً ، ينظر إليه مرة وينظر حواليه مرات . ينظر حواليه أكثر مما ينظر إلى الذى قصده لمشكلة يومه . كانت ترتسم على عينيه حيرة ويلم بشفتيه اختلاج ، يمنعه من البدء بشيء وما جاء إلا ليبدأ بشيء ، ولتيم ما يبدأ به إلى أقصى غاياته .
فقال له صاحبه مشجعاً :

— تفضل .

فاندفع نحوه يتمم بكلام لعله كان تحية كتمها خوفه من أن لا يرد صاحبه عليها وهو الفقير الأشعث الأغبر البادى الذل والانكسار .
ولكن صاحبه رأى ارتباكاً هذا فقال له وهو يشجعه :

— أهلاً وسهلاً .

قال الشيخ مستدركاً :

— السلام عليكم . كيف حالك يا أفندى ، يابك . كيف أنت ؟

ثم مد يده للمصافحة ، فنهض صاحبه من كرسيه بعض الشيء وقابل اليد الممتدة إليه . فما كذب إحساسه بما كان يتوقعه من يبوسة تلك اليد وارتجافها وتقوس أصابعها . ولكنه قبض على هذا كله مطمئناً راضياً يخامر نفسه شيء من السعادة على أن تنازل لهذا المسكين فهدأ روعه وقربه . وشرذ ذهنه حالا إلى ناحية أخرى . فإنه رأى أنه متعلم ورأى أن كثيرين من الذين يسميهم الناس بالمعلمين والمتقنين والعلماء من الذين يحيا معهم وينتسب إليهم ، يحسون أنهم إنما « يتنازلون » إلى مثل هذا الرجل حين يحبونه أو حين يردون له التحية . ورأى كيف يظن بعضهم أنه قام بفضل إذ يحيى رجلاً فقيراً أو يلتفت إليه .

ولم يشرذ ذهنه أكثر من هذا ، فقد انتبه إلى أن الرجل الشيخ أمامه ، فطمأنه وأشار إلى كرسى ، وطلب إليه أن يجلس ، ففعل . وكان صاحبه مشغولاً ، ولكنه لم يحبب على عجل أن يبادئ الرجل القادم بما يعرب عن كثرة شغله ، فقد يدخل ذلك في روعه غير ما أدخله هذا التشجيع الذى لاقاه إلى الآن ، ولكنه نظر إليه فرآه يتردد في مقعده كمن يهيم بالوقوف ثم يرى القعود أولى به ، وتلغثم الرجل فلما رأى صاحبه يصغى إليه قال :

— أيها الأفندى ، لى مسألة فهل ترضى أن تسمع مني خبرها ؟

قال صاحبه : « نعم » . وترك ما في يده وانعطف إلى الشيخ يستمع إليه كل الاستماع .

فأخرج الشيخ من عبه ورقة وهزها بيده هزاً رقيقاً ثم قال :

— أجرت بيتي يا أفندى إلى تلاميذ من مدرستك . خمس عشرة ليرة في السنة . وهذا هو السند ، سند الإيجار مدة السنة كلها . استأجره منى أحدهم واسمه إبراهيم . هو طالب في مدرستك . نعم في مدرستك . وابن عمه يا أفندى وواحد آخر لا أعرف اسمه . ومكثوا فيه ثلاثتهم ثمانية عشر يوماً ونصف يوم أيضاً . دفعوا لى ليرتين عربون الإيجار ثم عنّت لهم مغادرة البيت بعد هذه المدة ففعلوا، وهذا هو البيت يبقى لى من غير إيجار . إنه خال الآن وقد مضى الوقت الذى يمكن أن يؤجر فيه . إن البيوت عندنا يا بك لا تؤجر إلا بداية السنة، عندما يأتى تلاميذكم إلى المدرسة . كان الله لكم . أنت سبب الخير لنا . ثم سكت هنيهة وأخذ يقلب طرفى ثوبه فانحدرت عندئذ دموع كبيرة من عينيه فشرق بها ثم قال بصوت أجش متقطع :

— إنى فقير . أليس للفقير مكان فى هذه الدنيا يعيش فيه ؟

فهدأ صاحبه روعه ، ثم سأله :

— وماذا أستطيع أن أفعل ؟

قال :

— طلب إلى الباشا والقائد أن أفسخ عقد الإيجار من أجل خاطرهما ففعلت . فعلت ذلك من أجل خاطرهما يا أفندى . وماذا أصنع ؟ ثم حكما أن أرد للمستأجرين ليرة وأستبقى الليرة الثانية لى لقاء الأيام التى سكنوا فيها البيت . أستحق ثمانية قروش فوق الليرة ولكن الباشا والشاويش قالا : اترك القروش الثمانية من أجل خاطرنا ، ففعلت والله وأنا محتاج إلى القرش الواحد ، ولكن ماذا أصنع . عندى عائلة كبيرة . وأنا أصبحت شيخاً ولا قبل لى بالعمل ولا مورد لى إلا إيجار هذا البيت . بنيناه بأيدينا لنؤجره . نسكن غرفة ونؤجر الباقي يا سعادة البك ، إنه بيت ذو أربع غرف ومرافقها .

فالتهب صاحبه عاطفة وهمّ يدعو بالتلاميذ ، ولكنه لمح أنهم انصرفوا ولمح فوق هذا أن المسألة قد تدخل فيها رجلان نافذان ، فاطمأن وقال :

— وما دمت قد رضيت بفسخ العقد مع الطلاب من نفسك فماذا أصنع لك؟
قال الشيخ :

— عادوا فأخذوا الليرة منى يا أفندى . أخذوا الليرتين . لم أكن بعد قد دفعت الليرة للطلاب كما قد وعدت الباشا . ثم طلبنى الشاويش هذه المرة وقال ، ادفع الليرتين كاملتين للطلاب . فقلت له يا بك إننا اتفقنا على دفع ليرة واحدة . لو دفعت ليرة لكنت خاسراً ثمانية قروش والقروش الثمانية تقدم معى وتؤخر ، فأصر . فلما كررت إيضاح المسألة له أوقفنى سجيناً . فلما كان الظهر قالوا : لى احمل هذا الدلو واذهب فاملأه ماء صحبة هذا الجندى ثم عد معه . خجلت يا أفندى . متقدم فى السن ، أو ما ترانى — بلغت هذا العمر ثم أملأ الدلو على مرأى من الناس . اعتذرت فقالوا أو تدفع قرشاً لقاء كل دلو ، ودفعت قرشاً يا أفندى . فلما كان العصر دفعت قرشاً آخر ، تفادياً من ملء الدلو . قالوا لى مرة ثانية املأه ، وهكذا دفعت أربعة قروش ، ثم رأيت أن أخلى الليرتين وطلبت إخلاء سبيلى . وها أنا قد تعطل بيتى ومصدر رزقى ودفعت الليرة التى أستحقها ، والقروش الثمانية معها . ودفعت أربعة قروش علاوة على ذلك . ماذا أفعل ، الفقير مسكين ، الكل عليه .

قال ذلك واندفع يجھش بالبكاء وجرت دموع على شعر لحيته الأبيض . ونظر صاحبه إلى هذا ، فقد نال من قلبه منظر شيخ يبكى . لم يكن من قبل رأى شيخاً بهذه السن المتقدمة يبكى . وانعطف إلى نفسه مرة أخرى يسألها « هل فى الناس من يستحل عمل هذا الشيخ الفقير ، فيختلس منه دريهمات قليلة كهذه التى أخذ يعددها بالتفصيل منذ لحظة » . وبدا له أن يدفع له

المبلغ الذى خسره من جيبه ثم خطر له الطلاب وسطوته عليهم كما خطر له أن دفعه المبلغ يؤدى به إلى عداوة الباشا والقائد ، واندفع من هناك إلى التفكير بأن المرء فى هذه الدنيا قد يبدو له أحياناً أن يكون صالحاً فلا يقدر على ذلك خشية الناس .

ثم انقطع عن هذا كله فجأة وقال للشيخ :

— ولكن السند بيدك تستطيع أن ترفع قضية ، وتطالب بالليتين وبالعدل الذى أصابك .

قال الشيخ : عرضته على محام وشرحت له قضيتى كما قصصتها عليك فلم يقبل . قال قضية خاسرة . ثم استأنف الشيخ وهو يغص بالهواء الذى يتنفس به .

— لكننى لا أقدر أن أرفع قضية يا أفندى . يحبسونى ، يلزمونى بالعذاب ، يغضبون علىّ . أنا كبير السن وشيبتى هذه لا تتحمل من الإهانة أكثر مما تحملت . قلت أبنى البيت ونعيش منه أنا وزوجتى وأولادى لا يتدخل فىنا أحد . بنيناه بأيدينا .

قال صاحبه وقد عبرت بذهنه تلك اللحظة فكرة الباطل المريحة : لا أقدر أن أصنع شيئاً . إن القائد حر فى عمله . وهو لا يفعل إلا الحق . ثم لا سلطة لى عليه . وأما الباشا فأقدر أن أسأله فإذا أيد قولك فقد أتحدث إلى الطلاب بأن يعيدوا إليك الليرة ، فإن فعلوا فيها وإلا فلا قدرة لى على غير ذلك .

قال : أو تسأل الباشا ؟

قال صاحبه : نعم أسأله !

قال الشيخ : «يكفينى ذلك ، السلام عليكم . هات يدك » . فمد إليه صاحبه يداً للمصافحة ، فتناولها الشيخ بكلتا يديه وجذبها إلى وجهه ، وصاحبنا واجم

يشد يده شداً قوياً يبغي به تخليصها من الشيخ . لكن الشيخ جذبها بعنف وقبلها .

وشعر صاحبه بآثار القبلة الباردة تأخذ بظاهر يده ، كما شعر بدمعة خارة تسقط عليها ، وأحس خشونة شعر لحية الرجل ، وكان قد استسلم فأرخی يده يديرها الشيخ كيف يشاء وتهالك صاحبه في مقعده حيران لا يستطيع حراكاً . لم يعرف كيف خانته عزيمته فقد أحس بدبيب من الفتور يتسلط على مفاصله فيقعده ، وشعر بغشاوة تمر على بصره ، فلا يرى شيئاً ثم لم يعرف كيف خلت غرفته من ذلك الشيخ الفقير .

الحرب

لوليم سارويان

كانت سن كارل البروسى خمس سنوات وكان ذا طلعة توتونية باهرة ، كما كان يتخذ هيئة عسكرية حين يمشى على الرصيف المقابل لبيته . وكانت تعابيرها فى الكلام ذات جزم وحزم طبيعيين يبعثان على الإعجاب وينشئان النشوة فى النفس . وكان يتصرف تصرفه هذا كما لو كان يعلم حق العلم الأنفة اللازمة للحديث العسكرى . ولذلك كان يتصرف كأنه لا يجب أن ينال من هذه الموهبة . كان لا ينبس إلا نادراً ولا يقول إلا عبارات موجزة لا تعدو الواحدة منها ثلاث كلمات أو أربعاً تشير رأساً إلى القصد فى غرور مدهش عجيب . وكان يعيش فى البيت الواقع على العدو الأخرى من الشارع ، كما كان موضع افتخار جده . وكان هذا الجد رجلاً معتدل القامة يبلغ الخمسين من العمر له شاربان ألمانان بارزان . وكانت صورته قد ظهرت فى جريدة منذ سنوات حين كان يعنى بحملة سياسية خاصة . وقد بدأ هذا الرجل يعلم كارل المشى حالما استطاع الطفل أن يستوى على قدميه . كنت تراه يمشى مع الصبى الصغير الأشقر وقد ألبسه قميصاً أزرق سابغاً ، ومضى بخطو جيئة وذهاباً على الرصيف ، يمسك بيدى الطفل ويعلمه طريقة الخطو الدقيق إلى الأمام ، فى صورة تم على الغرور وطريقة ألمانية ملكية ، كما كان يدلّه على الطريقة التى يقوم بها رجله ويصلّب ركبتيه فى خطوات تشبه الواحدة منها الرجل وقد أعدت للقذف بشىء .

كان الرجل المسن والطفل الصغير يمشيان معاً على هذه الشاكلة كل يوم في الصباح . واستمرا في ذلك بضعة أشهر . وكان من الممتع جداً أن يرى المرء هذا السياق في العمل . وكان تقدم كارل سريعاً شيئاً ما ، وأخذ الطفل يدرك العبوس الهادئ الذي كان يغطي محيا جده ، وكان يبدو ممن يرى الطفل (حتى عن بعد) من عدوة الشارع الأخرى ، أنه قد آمن بأهمية هذا المشي الأنوف ، ويتمنى أن يتعلمه على الطريقة التي كان يعلمه بها جده . وكان الطفل وجده من حيث الواقع ذوى شخصية واحدة . لم يكن بينهما من فرق إلا هذا الفرق الذي يمليه العمر والاختبار ، ولم يكن يبدو على كارل أى مظهر من مظاهر الثورة أو التدمير أو الرغبة في العزوف عن هذا النظام الذي يأخذه به الرجل المسن .

وبعد زمن كان الناس يرون الصبي الصغير يمشى على الرصيف ذهاباً وإياباً قبالة بيته وحيداً لا يسعفه الكهل الذي كان يراقبه بهدوء وقد جلس على درجات بيته يدخن غليوناً وينظر إلى الطفل نظرة تم على الحشونة والكبرياء في حين كان الصبي يرفع نفسه إلى الأمام في شكل لطيف . وكانت طريقة المشي قديمة الطراز على التحقيق ، ومن المؤكد أنها كانت غير ديمقراطية بعض الشيء ، لكن كل إنسان في الحى أحب كارل ونظر إليه نظرتة إلى رجل صغير ظريف جداً . كان في مشي الصبي على هذا النحو شىء يبعث على الارتياح ويوحى بأن التوتونيين الصادقين يقدرون أهمية الأعمال الآلية كالتنفس والمشي والحديث . وهم يستطيعون أن يعنوا بهذه الأعمال التافهة عناية تم على العزة والتدبر . ويبدو أنهم يعتقدون أن التنفس ، والمشي ، والحديث ، تتصل اتصالاً وثيقاً بالحياة عامة ، ولهذا فليس في هذه الضجة التي يثيرونها حول هذه الأعمال ما يجب أن يبعث على شىء من التهمك أو السخرية .

وكان الذين يعيشون في البيوت المجاورة من الحى قد نشأوا نشأة طيبة خلال السنوات الست أو السبع الماضية . وكان فى الشارع عدد وافر من الأطفال ، نشأوا جميعاً صحيحى البنية حسنى المظهر . كنت أنا أراهم فى غاية الظرف على كل حال . ولم يكن كارل إلا واحداً من جماعة الصبية . ولم أذكره أولاً إلا لأنه كان الوحيد الذى تلقن الفهم القوى العرفى فى الحياة تلقناً واعياً . إن الأطفال الآخرين ينتسبون، إلى أعراق عدة . وفيما يُبدى كل طفل الصفات الأساسية للعرق الذى ينتمى إليه ، فإن هذه الصفات لم تعزز فى نفوسهم كما عززت فى نفس كارل . وبعبارة أخرى كان كل طفل ينتمى إلى قومه وعرقه انتماء طبيعياً غريزياً . ويبدو أنه لولا الدرس الذى تلقاه كارل عن جده لما بدا إلا كما يبدو الأطفال الآخرون — فى صورة لا ترمّت فيها ولا تصنع . لولا ذلك ما كان يبدو بهذا الوضع العسكرى فى المشى . كان هذا الوضع هو الفارق الأكبر بينه وبين غيره من الأطفال . ولولاه لما كان يبدو بهذه المظاهر التى كانت أحياناً تثير أعصاب يوسف ، وهو صبي سلاشى يعيش فى الطابق الأسفل من البيت .

أما يوسف فقد كان أكبر من كارل بسنة واحدة تقريباً . وكان طفلاً نشيطاً تم أعماله كلها على مرح داخلى . كانت ملامح وجهه مشرقة رقيقة تشبه ملامح وجه أبيه الحجاز . وكان من الأطفال الذين يتكلمون بكثرة ، والذين يبدون رغبة فى التعرف إلى كل شىء وإلى كل إنسان يتصل بهم . كان طليعة يثير الأسئلة فى كل مكان . وكان يجب أن يعرف أسماء الناس . وكان السؤال الذى يتوجه به دائماً هو « أين كنت » ؟ يسأل هذا السؤال كما لو يأمل أن تكون قد عدت للتو من مكان غريب عجيب يختلف عن كل ما قد رأى وعن كل ما على وجه الأرض . وكنت أنا نفسى أرتبك وأضطرب

دائماً لأنه كان يجب على أن أخبره بأننى لم أجد من مكان أعجب من قلب المدينة الذى رآه هو خمس مرات على أقل تقدير .

كان كارل نادراً ما يركض ، بينما كان يوسف نادراً ما يمشى ، بل كان دائماً يركض أو يقفز أو ينزلق كأنما هو يسافر من مكان إلى آخر ليجد شيئاً أهم من السفر نفسه وأهم من الوصول إلى مكان آخر . كانت الحركة نفسها بعبارة أخرى تسره أكثر من نتيجة الحركة . كان يوسف يلعب بينما كان كارل يمثل دوراً من الأدوار . إن السلاقي يعنى بنفسه أولاً ثم بعرقه . أما التوتوني فيعنى بعرقه أولاً ثم بنفسه . وظللت أراقب الأطفال الذين يعيشون فى الحى بضع سنوات . وأرجو ألا يتصور إنسان أنى أكلفهم شططاً بغية أن أكتب أقصوصة فإننى لا أكلفهم فى الواقع شيئاً ، وإن هذا الحادث الذى وقع بالأمس لا يعنى شيئاً ولا يشير إلى شىء لو لم أكن قد راقبت نشوء هؤلاء الأطفال . ولست آسف إلا على أننى لا أعرف شيئاً أكثر عن إيرفنج الطفل اليهودى الذى كان يبكى بكاء مرّاً بينما كان كارل ويوسف يقتتلان .

فقد جاء إيرفنج مع أمه وأبيه إلى هذا الحى منذ تشرين الثانى ، أى منذ ما يقل عن أربعة أشهر ، ولكننى لم أره ولم أعرف شيئاً كافياً عنه إلا بعد شهر عندما أخذ يظهر فى الشارع . إنه صبي سوداوى الظاهر تقارب سنه سن يوسف ويشبه على العموم النوع الباطنى من الناس ، الذى يثق بما توحى إليه به نفسه . وأنا أظن أن أبويه آخذان فى تعليمه الموسيقى ، فإنه تبدو عليه سماء من سيصبح عازفاً ماهراً على الكمان أو البيان . فهذا رأس كبير يدل على الجلد وهذا جسم نحيل وهذه أعصاب مرهفة .

وفما كنت فى طريقى إلى البقال ذات مساء رأيت إيرفنج يجلس على درجات بيته ، وكأنه استرسل فى أحلام جميلة من أحلام الطفولة التى تدهشها غرائب

الكون . وأحببت أن أتحدث إليه في هدوء لأعرف ، إذا استطعت ، ما يدور في ذهنه . ولكنه حين رآني أقبل عليه نهض مسرعاً وصعد الدرج إلى بيته مضطرباً ، وقد أخذته الدهشة واستولى عليه الخوف الشديد . ولكم كنت على استعداد لأقدم فونوغرافى هدية ، لو عرفت ماذا كان يحلم به إيرفنج ذلك المساء ، فإن هذا كان جديراً أن يوضح بعض الشيء سبب بكائه الليلة الماضية .

وكان كارل شديداً قاسياً يعرف مكانته حق المعرفة . وهو شديد الثقة بنفسه وإن ما تلقاه من التدريب بالحدير بأن يصرفه في كبرياء عما لا يدور حوله هو . أما يوسف فهو أقل منه شدة وقساوة ، وإن كان يثق بنفسه الثقة ذاتها ، لأن حب التطلع الدائم إلى كل ما حوله يحمله على الحركة الدائبة ، والعمل دون تفكير . إن وجود إيرفنج في الشارع ملموس ، ولكن في وجوده شيئاً يبعث على التفهكة ويثير الحزن ، وهو لا يديره ولا يستطيع تصويره . لكانه وهو في مكان ، دائماً في مكان آخر . وإيرفنج لا يثق بنفسه أى نوع من الثقة . إنه غير مدرب على طراز خاص أو غير خاص . إنه سوداوى المزاج وكفى . وسيعرف فيما بعد المعرفة كلها على ما أظن ، أين موقفه ، وسيعرفه ذلك علاقته بكل ما حوله . لكنه الآن ضائع مرتبك إلى حد لا يستطيع عنده أن يدرك شيئاً من الأمر كله .

وقد وقعت الاضطرابات في باريس منذ عهد قريب ، ثم عقت ذلك الحرب الأهلية في النمسا . ومما هو معلوم أن روسيا تجهز نفسها للدفاع ضد هجمات اليابان ، ولا يعرف إنسان ما يغشى أوربا كلها من الحوادث والقلقل بسبب البرنامج الوطنى للدكتاتور الألمانى الحاضر .

وأنا أذكر هذه الحقائق لأن لها صلة بما سأقص عليك ، فإن في الأرض كما يقول جويس أطفالاً في كل مكان ، وإن الحادث الذى وقع الليلة

الماضية لنو معنى عندى أوسع من هذه الحوادث التى تقع فى أوربا على ما يفسرها به كبار السن الذين تجاوزوا فى الظاهر على الأقل سن الطفولة .

وقد بدأ يوم الأمس غائماً ذا ضباب كثيف ، وتبع ذلك مطر عابر ، ولكن ما حلت الساعة الثالثة بعد الظهر حتى كانت الشمس مشرقة والسماء صافية ، إلا من غيوم بيض قليلة العدد لا تدل على طقس معتدل أو هواء نقي أو جو صاف . وعلى هذا النحو يتغير الطقس فى سان فرانسيسكو ، فهو فى الصباح معتكر ممطر وفى الظهر قابل للتحويل بسرعة إلى طقس ربيعى أو غير ربيعى من فصول السنة . على أن الناس هنا قلما يلتفتون إلى الفصول فإن فصول السنة كلها تتعاقب فى غير نظام .

وعند ما غادرت غرفتى هذا الصباح لم يكن أحد من صبية الشارع قد خرج من بيته . فلما عدت فى المساء رأيت يوسف وإيرفنج واقفين معاً على الجانب الذى كنت أسير فيه من الشارع يتحدثان قبالة بيت إيرفنج . وكان كارل يمشى على الجانب الآخر من الشارع أمام بيته فى هيئته العسكرية التى وصفت ، وقد بدا منتفخاً فى هيئة لطيفة تدل على شعوره بالفخر بنفسه . وكان خمس بنات صغار فى منحدر الشارع يلعبن إحدى اللعبات على الرصيف ، وهن أخت يوسف وأختان إيرلنديتان وأختان إيطاليتان .

وبعد المطر يصفوا الهواء ويصبح السير خارج البيوت ساراً . وكان الأطفال يلعبون فى الشارع تحت أشعة الشمس . وكان بديعاً أن يحيا الإنسان حياة ناشطة ملؤها الحب . وأنا أذكر هذا لأقول إن القبح الذى يلم بالقلب الإنسانى أحياناً لا صلة له بما يحدث فى الطبيعة أحياناً من مظاهر القبح . فنحن نعلم بأن الريف الأوروبى حين كان فى ذروة جماله لم يعجل بهذه الحرب الأخيرة وأن نسبة من قتل فيها ظلت كنسبة من قتل أثناء الطقس المكفهر، وأن ما حدث من

تأثير الطقس الجميل هو أن بعض الجنود الشبان نظموا شعراً رقيقاً فيه خلق وإبداع ، وعبروا عن رغبتهم في العودة إلى بيوتهم وزوجاتهم وفي ألا يذهبوا ضحية الموت .

ولما عبرت في طريقى عن يوسف وإيرفنج ، سمعت يوسف يقول وهو يتحدث عن كارل : انظر إليه ، انظر إلى الطريقة التى يمشى بها ، لماذا يمشى على هذه الصورة ؟

ولقد علمت زمناً ما أن يوسف لم يكن مرتاحاً إلى الطريقة التى يمشى بها كارل فى انتفاخ وثبات ، ولهذا لم تبد لى ملاحظاته غريبة . ثم إنى قلت إنه كان طلعة بطبيعته يبحث عن كل ما يحيط به ، وإنه كان دائماً يوجه الأسئلة للناس . وقد بدا لى أن اهتمامه بمشية كارل كان فيه روح فنية من البحث ، وليس فيه شئ من السوء أو الشر . ولم أنتظر لأسمع إيرفنج وهو يجيب ، بل توجهت رأساً إلى غرفتى لأكتب تحريراً كان يجب على أن أكتبه . فلما انتهيت منه وقفت على نافذة غرفتى أتفحص الشارع . كانت البنات قد اختفين ، لكن كارل ظل عبر الشارع كما ظل يوسف وإيرفنج معاً . وأخذ الجوى ظلم والشارع يهدأ هدوءاً شديداً .

والآن لا أدري كيف وقع ما سأفصلى به إليك . فلقد تخيلت عند ما أخذ يوسف وإيرفنج يعبران الشارع أن أمة برمتها تتحرك بحجة جيشها إلى حدود أمة أخرى . ولقد بدا الصبية الصغار أبرياء إلى حد يثير الحب وبدت الأمم كلها أشبه ما تكون بالأطفال ، ولذلك لم أتمالك من الضحك . وعجبت ، فالأرجح أن حرباً أخرى ستقع غير بعيد ، وأن الأطفال سيملاؤن العالم ضجيجاً ، ولكن ما سيقع سيكون فى الأرجح شبيهاً جداً بما يقع الآن ، لأننى واثق من أن يوسف وكارل سيجهران بالكراهية التى يضمرها أحدهما لصاحبه — تلك الكراهية البلهاء الذاهبة بالقوى ، والتى لا تكون إلا من الجهل والفجاجة

التي تعبر عن نفسها بأن يضرب إنسان آخر وأمة أخرى بدافع من تلك الكراهية السخيفة ، وذلك لتسيطر أمة على أمة أخرى أو تمحوها من الأرض .

كان صبيان صغيران إذن يقتتلان وكان صبي ثالث يصيح . وكانت أثناء ذلك تصطلي بنار المعارك أمم برمتها . لم أستمع إلى ما قاله يوسف لكارل ولا إلى ما قال كارل ليوسف ولم أدر بالضبط كيف بدأ القتال ، ولكن دار بخلدى أنه بدأ منذ أمد طويل قبل أن يشتبك الصبيان في قتال . بدأ منذ سنة أو ربما منذ قرن . رأيت بعيني يوسف يتناول كارل ورأيت كلا منهما بلطفه وجماله كما رأيت كارل يدفع يوسف ورأيت الصبي اليهودي الصغير يراقبهما في وجوم وذعر بل في ذهول تام . ولما بدأ التوتوني الصغير والسلافي الصغير بضرب أحدهما الآخر ضرباً مقصوداً أخذ اليهودي يبكي . ولقد كان هذا جميلاً — أعني بكاء اليهودي الصغير وليس القتال الدائر . ولم يستغرق الحادث إلا هنيهة ، لكن معناه كان شاملاً . وكان أجمل ما في الأمر وأمتعته هذا البكاء الذي سمعت . لماذا بكى الصبي ؟ لم يكن له دخل في الأمر . ما كان إلا شاهداً كما كنت أنا شاهداً ، فلماذا بكى ؟

لكم كنت أتمنى لو عرفت شيئاً أكثر عن هذا اليهودي الصغير ، لكنني لا أستطيع أن أتخيل سبباً لبكائه إلا ما في النفس البشرية من قبح وكرهية . نعم إن القبح في النفس البشرية والكره خلطان قائمتان لا ريب فيهما . ذلك جهد ما أستطيع أن أذهب إليه في تأويل هذا الأمر .

صَوْم رَائِح

كان عطا الله يمشى الهوينا على رصيف الشارع ، وقد رمى ببصره إلى الأرض ومال برأسه إلى الأمام في انكسار ظاهر وحزن عظيم . وكان الوقت قريباً من مغيب الشمس وقد خلت شوارع المدينة من أكثر الناس . كان الوقت رمضان ، وكان الناس كلهم قد انقطعوا للصوم على أثر ما جاء شيخ تقي إلى البلدة يعظ الناس ، ويخوفهم من النار في اليوم الآخر .

ومع أن عطا الله لم يُلَقَ بالآ إلى الشارع ولا إلى الناس ، فإن أقل ما كان يجب أن يقع له هو أن يرى أحداً في الطريق . وتعهد على عادته أن يقطع مسيره إلى البيت بحيث لا يراه أحد . لم يكن هذا دأبه في رمضان فقط ، ولكنه كان دائماً هكذا — يختار الطريق الذي لا يلقاه فيه أحد ولا ينازعه تفكيره فيه أحد . وكان سهلاً عليه في رمضان أن يجتاز الطريق دون أن يعثر بإنسان أو يعثر به إنسان ، إذ ما عليه إلا أن يتأخر في المسجد بعد صلاة العصر حتى يرى المؤذن وقد أخذ بالاستعداد للصعود إلى المئذنة فينصرف هو من أقرب طريق .

وكان أيسر على عطا الله في رمضان أيضاً أن يتجنب كلام الناس . فإن كثيرين من الصائمين يعرفون أن الصمت هو إحدى القُرْبَات إلى الله . وكانت هذه القُرْبَى محببة إلى نفسه فإنها كانت توفر عليه مؤونة الكلام مع كثيرين من الفضوليين .

وكان الوقت قبيل أذان المغرب حين كان عطا الله يمشى الهوينا على رصيف الشارع . كانت الشمس قد آذنت بالمغيب وكان الجو مكفهراً يتخطى أشهر الخريف وكان الهواء ثقيلًا يشعر المرء منه بانقباض رازح . وكانت أشعة الشمس تتوارى عن هضاب المدينة . وفي وسط هذه الكآبة كان عطا الله يمشى من المسجد إلى البيت ، تنقل يده من إبط إلى آخر صرة فيها أرغفة خمسة اشتراها من آخر بائع للخبز أدركه عند باب المسجد حين ترك المسجد .

وكان يفكر في ابنه المريض وزوجته وابنتيه . وشرذ تفكيره إلى مستقبل هؤلاء جميعاً بعد موته . إن ابنه صغير وإنه ليدلف إلى القبر ، وإن زوجته وابنتيه لا يقدرن على الكسب . وها إن الدنيا قد عبست منذ سنوات — منذ هبطت قواه فعاد لا يقدر على العمل .

فكر في هذا كله وتداعت خواطره ، فأخذ يحلل المستقبل تحليلًا دقيقاً . ولكن يداً رفيقة ربت على كتفه الأيمن فقطعت عليه خواطره ، وأحسن في التربيت لطفاً ولكنه أحسن فيه استعلاء وعرامة كذلك . ونظر إلى يمينه فإذا هو الشيخ فضل الذي يؤمه في الصلاة الجامعة بالمسجد . ومع أن ما في حركة يد الشيخ فضل من الاستعلاء ألم عطا الله وأزعجه ، فإنه ارتاح إلى أن يكون ذلك من الشيخ فضل نفسه لا من غيره ، فقد كان يجد في سريره إكباراً لهذا الشيخ وإعظاماً له . كان يؤم في الصلاة بتؤدة وكان إذا أم في صلاة التراويح أداها على خير ما تؤدي صلاة ، فإن غيره من أئمة المسجد كان يؤديها في سرعة آلية ، كأنه يتخلص من واجب ثقيل . ورأى أن الديانة السمحة تقربه إلى هذا الشيخ وإلى غيره من المسلمين الذين علمت منزلتهم .

وسأله الشيخ فضل فقال :

— لا بد وأنك ذاهب إلى بيتك .

قال عطا الله :

— نعم

قال الشيخ :

— هل لك إلى الإفطار معي اليوم ؟

فاختلج عطا الله اختلاجة سريعة خفية . كان يتوقع كل شيء في دنياه إلا أن يفطر في بيت كبيت الشيخ فضل ، ولكنه مع ذلك ازداد ارتياحاً وهز رأسه في غير وعى أمارة القبول ، وبدأت عليه علائم الغبطة والافتخار . وكان عطا الله يحب أن لو يرفض دعوة الشيخ ليعود إلى منزله ، ولكنه لا يدرى كيف تغلبت عليه هذه الدعوة .

إن ابنه في البيت مريض جداً وفي حاجة إلى عناية تنقذه . لكنه الآن لا يستطيع الرفض . وامتد خياله فتصور البيت الذي سيدخله عما قريب . لا بد وأن يكون مليئاً بالكتب الضخمة التي يحضر الشيخ بعضها إلى حلقات الدرس كما لا بد وأن يكون مفروشاً بالحصير النظيف والفرش البيض النقية . تصور هذا وتصور معه ما لا بد وأن يكون الله قد منَّ به على الشيخ من ورع وتقوى .

وأحس الشيخ فضل سهوم صاحبه فتداركه وقال :

— ليس بيتي بعيداً من هنا ، تفطر معي ثم تذهب إلى أهلك مصحوباً

بالسلامة .

وسار عطا الله مع الشيخ إلى منزله ، وبعد قليل دب إليه إحساس من المضض والألم . شعر أن مكانة الشيخ فضل أعلى من مكانته وتذكر ابنه المريض ، وعائلته التي تنتظر الخبز الذي يتأبط ، وأمعن في التفكير . هل بقي من خبز البارحة شيء يتبلغون به ، وهل الخبز وحده يكفي ؟ وأدرك وهو ماض

في سيره تلبية لدعوة الشيخ ، كأنه قد اقترب إثمًا .

وعاد الشيخ فضل فقال :

— أراك كثيراً في المسجد فيماذا تشتغل ؟

فأجاب عطا الله :

— لا شغل لي اليوم ، فقد ذهبت قدرتي على الشغل كما ترى .

قال الشيخ :

— لك عيال ، أليس كذلك ؟

— نعم ، زوجة وابنتان ، وابن مريض .

وتلغثم ثم اندفع فقال :

— بعد فطوري معك أرجو أن أنصرف إليهم مسرعاً .

قال عطا الله ذلك وصوته متهدج يكاد ينفجر ، فأدار الشيخ عنان الحديث

وهو يقول متصنعاً الابتسام :

— لك مورد على كل حال تعيش منه ، إن الله لا يقطع أحداً من رزقه .

فقال عطا الله :

— . . . لي الله . أنا لست في ضيق ، الحمد لله .

وأحس الشيخ فضل على الرغم من ذلك فقر عطا الله وعسر حاله . وكان

قد اقترب من منزله فخطا مسرعاً يمهّد الطريق لصاحبه . وألحت على عطا الله

الأفكار آنئذ : ترى كيف يكون بيت الشيخ ، كيف تكون مائدة الإفطار التي

سيدعوه إليها عما قريب ؟ وتذكر زوجته وابنتيه فخفض بصره ، وانقطع حبل

تفكيره . وأدركه الشيخ فضل ففتح الباب فدخل ومضى الشيخ أمامه حتى

أجلسه في غرفة الضيوف وخلاه هناك . وأضحى عطا الله وحده مرة ثانية فنظر

بسرعة إلى ما في الغرفة ، ثم أخذ يتفحص بدقة ، فشعر بنفسه تراخي وبهيمته

تهبط ، وأحس كأن الدنيا تطبق عليه ورغب في أن يموت . أحس بالفارق العظيم الذى يفصله عن الشيخ فضل ، على الرغم مما اطمأنت إليه نفسه قبل قليل من قرب الشقة بينهما . ورأى الأثاث يختلف كل الاختلاف عما تخيل ، فجدران الغرفة تكاد كلها لا تبين مما غطيت به من ستائر وزخارف . ونظر إلى الأرض فرآها مفروشة بالسجاد السميك الفاخر . وأشد ما لفت نظره صورة كبيرة للشيخ . كانت صورة نصفية ، فلو وهبت الروح ما استطاعت أن تعيش ، ولذلك ارتفع الإثم منها . فأحس لذلك براحة ، ثم عاود النظر في الغرفة وتفحص أرائكها الضخمة ومتكأاتها الحريرية ، فتحير في مجلسه ثم اطمأن ، فجعل خده على يده وأطرق . وحاول أن يبدد كل انتقاد ثار في نفسه لكن شيئاً واحداً ظل يعاوده : أليس هذا كثيراً ؟ ومر بخاطره شبح ابنه يتلوى مريضاً في فراش رقيق على أرض جرداء فهبطت همته مرة أخرى . وفى هذه اللحظة دخل الشيخ فضل فدعاه إلى المائدة . فجلس على كرسي إلى طاولة ونظر فأظلمت الدنيا في وجهه ودارت برأسه برهة . ورأى الشيخ ذلك فعزاه إلى تأثير الصوم . ولما هدأ روعه فكر فودّ في نفسه لو قدم له الشيخ مائدة أبسط ، إذن لكانت أقرب إلى طعامه المحبوب الذى يتناوله عادة في بيته ، وإذن لكان أقرب إلى الشيخ وأدنى . وأخذ ديب من الكراهية لم يحسه قط في حياته يتسلل إلى نفسه .

وأذن الوقت فأفطر الشيخ فضل مبتدئاً بكوب من الماء . فمد عطا الله يده إلى كوب مماثل بجواره فسمى بالله وجرعه . ثم رأى الشيخ يتناول من صحيفة صغيرة تمرّاً حجازياً أشقر ، ففعل كما فعل الشيخ . وعندئذ تذكر السنة النبوية فهدأت نفسه على أن أتاح الله له أن يفطر كما تتطلب السنة الشريفة . وبدأ له آنئذ كأن الفقر يحول أحياناً دون أداء الواجبات الدينية . وساد

صمت طويل لم يسمع خلاله إلا أصوات الملاعق وحركات الأيدي تدير الصحنون . وأخذ عطا الله يتناول الطعام من كل ناحية على المائدة في غير نظام ، واكتنهر وجهه ثانية في وضوح يكاد ينطق بالبؤس والكآبة . وأخذ وجهه يتصبب عرقاً واغرو رقت عيناه ثم انفجر في إجهاش خافت متردد كان يخنقه لئلا يسمعه الشيخ أو يفهم معناه . ثم أخذ يكفكف شجونه والشيخ يلحظ هذا كله . وأخذ الشيخ العجب . لقد علم أن ابن صاحبه مريض ، لكن ذلك في نظره لم يكن كافياً لتأويل ما يحدث أمامه . ولقد كانت عادته أن يحضر كل ليلة في رمضان إلى بيته من يفطر معه ، وكانت تلك مع ذلك أقل الليالي حفاوة فقد تعود أن يحضر معه أكثر من فقير واحد . لكنه هذه المرة رأى نوعاً جديداً من الفقر . ورأى أن أفضل ما يستطيع أن يفعل هو أن يغادر غرفة المائدة ليخلى السبيل لشجون صاحبه ، ففعل دون استئذان ومكث زمناً عاد بعده وقد فرغ صاحبه من فطوره . ولم يستقر عطا الله بعد هذا شيئاً بل استأذن فودع الشيخ وتناول الأربعة الخمسة التي كان يتأبط ثم خرج .

وفي الطريق أرخى العنان لشؤونه وشجونه معاً . فتذكر ولده وابنتيه وزوجته فحنق قلبه حباً وحناناً وجفف دمه ، وهرب حتى وصل إلى بيته فدخل فوجد كل شيء صامتاً كالموت . وأقبل تَوّاً على فراش ابنه الملقى على الأرض فأحس جبينه وتلفت إلى زوجته العزيزة ثم أخذ يبكي . فأخذت زوجته تبكي معه في صوت خافت . كان ابنه في النزع الأخير . ومع ذلك استطاع أن ينعطف إلى زوجته فيسأل :

— أين هنية ومريم ؟

فأجابت :

— إنهما في المطبخ .

ولم يكن البيت أكثر من المطبخ وتلك الغرفة التي يضطجع فيها ابنيهما سليم .
وكان باب المطبخ مغلقاً حين دخل عطا الله فلم تره ابتناه ، وإلا لرحبنا به كالعادة
وقبلنا يديه . وفطن إلى الحيز فنهض وذهب فحيا ابنتيه ثم قدم الحيز إليهما . لم
ينظر إلى ما كانتا تصنعان ثم عاد وجلس على الأرض إلى جوار ولده العزيز .

ورأته زوجته على هذه الحالة فقالت في لهجة عطف ومحبة :

— تأخرت الليلة على غير عادتك .

فقال وهو يشرق بدمعه :

— لبيت دعوة الشيخ فضل إلى الفطور ، ليتنى مت . لا أدري لم فعلت
ذلك !

فقالت الزوجة :

— لا بأس إن صحة سليم تتحسن .

فأشرقت أسارير وجهه فجأة .

لقد كان يثق باختبار زوجته ، ثم قال :

— إذن حضر الطبيب ؟

قالت الزوجة :

— لم يحضر . لقد ذهبت إليه ووصفت له خطورة الحال لكنه أبى أن
يحضر .

فاقترب من زوجته والتصق بها وضمها إليه ثم أخذ ينشج بالبكاء . وقال :
إن الفقير في هذه الدنيا وحيد . حتى إذا مات مات وحده . فإذا غطاء
ابنه يتحرك ، وإذا ابنه يشخص إليه ويتصب عرقاً ، ويفوه بكلام خافت .
إنه يطلب ماء . وانفرجت شفتاه عن ابتسامه أشرقت في عيني أبيه إشراقة

الضوء فى الظلام الدامس ؛ فقال على ابنه يقبله . واستأنفت نفس عطا الله الحياة .
 إنه سىرى ابنه معافى بعد حين . وسيراه عاملاً يحدّ ليحصل قوت العائلة .
 وسيكون من النشاط والقوة بحيث يوفر لأمه وأختيه أياماً بيضاً لم يستطع هو
 فى الآونة الأخيرة أن يوفرها لهن .

وانعكس ذهنه إلى ماضيه كله . لا يذكر أنه استطاع يوماً فى حياته أن
 يضمن قوتاً كافياً لنفسه ولعائلته . وتساءل عما إذا كان يصح أن تودى
 الحياة به وبأبنائه على هذا النحو دون ذنب ودون مغيث . وأحسن أن هذه الفكرة
 ستبدد فرحته بتمثال ابنه للشفاء فطردها ونهض ليأخذ مضجعه من الغرفة . ثم
 حمل نفسه على النوم فأغفى وهو يهدى :

— ليس هناك كثيرون مثل الشيخ فضل . إن أكثر الناس فقراء مثلى
 والصوم يسوى بينى وبين أكثر الناس . ليت الدهر كله رمضان . إنه جوع ،
 ولكن المرء يثاب عليه . فلأئو الصوم إذن يوم غد ، فما أحسن أن يمتد هذا
 الشهر المبارك الدهر كله فأستوى مع الناس فى صوم دائم .

الجندي المشوّه

لأوليقر كولدمث

لا أجد شيئاً أكثر شيوعاً ولا أصدق وقوعاً من أن نصف العالم لا يعلم كيف يعيش نصفه الآخر. إن ما يقاسيه معظم الناس من متاعب ومصائب يمثّل أمامنا ليسترعى أنظارنا. وإن هذه المتاعب والمصائب لتشخص شخصاً جليلاً يستفز النفس إلى الحماس والفورة. إني أدعو العالم إلى أن يتبصر بهؤلاء النبلاء من الناس الذين يعانون ما يعانون. إن الكثرة المطلقة لترزح تحت كابوس هذه المصائب وهي واعية أن عدداً من الناس يعطف عليها ويشعر شعورها فيتملكها من ذلك إحساس من الراحة والإعجاب المحزوجين بالألم. ولست أجد نبلاً اسمي ولا إباء أشد من أن تتحمل سوء الطالع الذي يتتابك بثبات وعزم، في حين يتطلع إليك العالم كله تطلع العارف بما قد أصابك. إن هؤلاء الناس في مثل هذه الأحوال يتصرفون تصرف الشجعان الأباة، يدفعهم إلى ذلك دافع الحاجة. ولكن هذا الذي يتغلب بجرأة على ما يعاني من الشقاء، الذي يتصرف تصرفاً هادئاً لا يبالي فيه ما حوله حين لا يكون له أصدقاء يشجعونه أو معارف يعطفون عليه أو حتى أمل يهدئ روعه ويحد من سوء طالع، إن هذا الرجل لعظيم حقاً سواء أكان مزارعاً بسيطاً أم وزيراً خطيراً. إنه لعظيم يستحق الإعجاب

ويجب أن نتطلع إليه بحرمة ، نفتنى أثره ونصطنع طرائقه وأساليبه .

وبينا تعظم مصائب الكبراء فيعبر الناس لهم عنها فيسمونها نكبات ، وبينما يفصح هؤلاء السادة عن متاعبهم بأساليب الفصاحة كلها تجد شقاوات الفقراء لا يعبأ بها أحد ، ولا يعبر عنها أحد ، ومع ذلك فإن من هؤلاء الفقراء من يتحمل في اليوم من المشقات والآلام ما يفوق أضعاف ما يكابده طوال حياتهم أولئك الذين رفعهم الله بالمال إلى عليين . لا يستطيع أحد مثلاً أن يتصور المتاعب التي يتعرض لها جنودنا وملاحونا البسطاء دون ما تدمر ولا أسف ، ودون ما اعتراض على الله أو استصراخ لأحد أو استدعاء لإنسان بغية أن يعجب بشجاعتهم . إن أى يوم من أيامهم لشقاء كله ومع ذلك فإنهم يرحبون بمصيرهم غير متململين ولا ضجرين .

فما أشد ثورة نفسى حين أستمع إلى أوفيدٍ من الناس أو شيشرون منهم يشكوبفصاحة سوء حظه ويفضى بمتاعبه — وإن معظم ما ألم به لعدم استطاعته أن يزور بقعة معينة من الأرض أناط بها على شكل سخييف فكرة من أفكار السعادة التي يتخيلها لنفسه . إن آلامه لهى السعادة نفسها لو تقارن بها ما يتعرض له وينوء به كثيرون من الفقراء المغامرين ، دون قلق أو ضجر . لقد أصاب حظه من الطعام والشراب والنوم ، وإن له لعبيداً يخدمونه ، وإنه لمطمئن إلى ينبوع رزقه ينساب مدراراً مدى الحياة ، حين يرغب كثيرون من إخوته التاعسين من البشر على أن يضربوا في الأرض بلا صديق يعزيهم ويؤازرهم أو ملجأ يعصمهم من وطأة الجوأوشدة الدنيا .

وقد ألقى بي في خضم هذه الأفكار والتأملات ، ما بعثته في نفسى منذ أيام ، مقابلة لرجل فقير عرفته يوم كنت صبيّاً . كان هذا يلبس معطف بحار يسأل الناس في أحد أزقة البلد ، ويجر رجلاً من الخشب . عرفته من قبل

شريفاً مجدداً . فثار في نفسي أن أعرف ما أودى به إلى وضعه الحاضر . وبعد أن تقدمت إليه بما يسر الله لي ، رغبت في أن أعرف سيرة حياته ، والسبب الذي آل به إلى نكبته التي حاقت به . أما هو فقد كان مشوهاً حقاً ، على الرغم من أنه كان يلبس لباساً نظيفاً . اتكأ على عكازته ومال برأسه ، وهياً نفسه في وضع يتمكن معه من الجواب على ما أردت ، وسرد قصته فقال :

« إذا أردت معرفة سبب سوء طالعي يا سيدي ، فليست أستطيع أن أقول إنني عملت أكثر مما عمل غيري . فإذا غضضت النظر عن ساقى التي فقدت ، وعن حاجتي إلى التكسب بسؤال الناس ، فإني ولله الحمد لا أعلم سبباً لشقاء أو تعاسة . خذ (بيل بتس) أحد أفراد فرقتنا مثلاً ، فقد أضاع كلتا ساقيه وإحدى عينيه . فأحمد الله على أني لم أصب بهذا الأذى كله .

« ولدت في (شورشير) وكان أبي عاملاً ، ثم مات عند ما كانت سني خمس سنوات فأدخلت إلى أبرشية ، فقد كان أبي كثير الترحال . ولم يبت رجال الأبرشية في الأبرشية التي يجب أن أنسب إليها ، كما لم يبتوا في أمر مكان ولادتي ، ولذلك دفعوا بي من أبرشية إلى أخرى على غير هدى . ثم عنّ لهم أخيراً أن ينسبوني إلى إحدى الأبرشيات . وكان لي شيء من الميل إلى الأدب وكنت قد صممت على أن أعرف لغتي ، ولكن الحاجة إلى العمل دفعت بي إليه حالماً تمكنت من القبض على المطرقة . وهنا أخذت أعيش عيشة راضية ناعمة خمس سنوات متواليات . كنت لا أعمل إلا عشر ساعات كل يوم . وكان اللحم والشراب ميسورين لي أتناولهما مقابل عملي . أجل لم يكن يؤذن لي بالخروج من البيت خشية أن أهرب كما كانوا يقولون . ولكن أي هروب ، لقد كنت حرّاً في البيت كله ، وكانت ساحة البيت منفسحة أمامي وما كنت أحتاج إلى غير ذلك ، فقد كان يكفيني كل الكفاية . ثم صرت إلى خدمة مزارع . كنت أبدأ العمل مبكراً وأنتهى منه متأخراً . لكنني كنت آكل وأشرب ما يقوم

بأودي كما كنت أحب عملي حباً جماً. ثم مات المزارع فاضطرت إلى أن أعول نفسي ، فأخذت أجوب الآفاق أفتش من جديد عن عمل .

« وعلى صورتي هذه كنت أنتقل من مدينة إلى أخرى أعمل حيث أجد العمل وأجوع حين لا أجد منه شيئاً . وحدث ذات مرة أني كنت أقطع أحد الحقول ، وكان صاحب الحقل قاضياً . رأيت أرنباً يعبر الطريق على مقربة مني فوسوس إلى الشيطان أن أضربه بعصاي . وقدر الله فقتلت الأرنب . وكنت أحاول أن أحتمله حين رأيت القاضي يعترض سبيلي ، ويسلقني بلسان حاد ، وينعتني بنعوت النذالة واللصوصية وما إلى ذلك . ثم قبض على مخنقي وطلب إلى أن يعرف تاريخ حياتي . فوقعت إلى الأرض جاثياً على ركبتي وتوسلت إليه أن يعفو عني . ثم طفقت أسرد له سرداً مفصلاً كل ما عرفت عن منشئي وأصلي وحياتي . ومع أني أفضيت بشيء صحيح ، فإنه اتهمني بالكتمان فحولت إلى المحاكمة وصدر الحكم عليّ بأنني كنت مجرمًا ، وبعث بي إلى لندن ثم إلى نيوكيت ، على أن أنقل كما ينقل المتشردون .

« وقد يقول الناس عن السجن والمساجين ما يقولون، لكني لا أكتمك أني وجدت نيوكيت من أكثر الأماكن التي عرفت في حياتي ملاءمة لي. كنت أستطيع أن أملاً معدتي بالطعام والشراب ولم أكن أعمل شيئاً ، ويبدو أن هذه الحياة كانت أنعم وأجمل من أن تستمر طويلاً . فحملت من السجن بعد خمسة أشهر إلى إحدى السفن ، ثم أرسلت إلى المزارع مع مائتي رجل آخرين. وكنا جميعاً محشورين في مكان ضيق ، ولذلك مات منا ما يزيد على مئة ، من جراء الهواء الفاسد . وكان الباقون على قيد الحياة مرضى ، يعلم الله . فلما وصلنا إلى الشاطئ باعونا إلى أصحاب المزارع ، فكان على أن أعمل سبع سنوات أخريات. ولما لم أكن متعلماً فقد كان على أن أعمل بين البربر، وقمت بعمل حق القيام كما يتطلبه الواجب .

« فلما انتهت مدة السجن التمت طريقاً إلى بلادى . فما كان أشدني فرحاً

عندما وقعت عيناي على قرىتي الحبيبة مرة أخرى . لقد أحببت بلادى لكنى خشيت أن أقع ثانية تحت طائلة الاتهام ، ولذلك لم أقصد بلاداً أخرى ، وإنما بقيت في القرية أقوم بما أحصل عليه أحياناً من الأعمال الصغيرة البسيطة . « وكنت عظيم السرور والارتياح إلى هذه الحال ، حتى كنت عائداً من عملي إلى بيتي ذات مساء فضربنى رجلان وطرحاني أرضاً ثم طلبا إلى أن أقف مرة أخرى . كانا لصين من عصابة . فقدمت من أجل ذلك إلى العدالة ؛ فلما عجزت عن أن أزيدهم بياناً عن نفسي خيرت بين أن أسلك في الجندية أو أنتظم مع البحارين ، فاخترت سلك الجندية ، وخدمت في هذا العمل ، فخفضت غمار معركتين في الأراضي المنخفضة معركة (قال) ومعركة (فونتينوى) ولم يصبنى إلا جرح في صدرى هنا ، ولكن طيب فرقتنا أعادنى ثانية إلى حالتي الصحيحة .

« فلما انعقدت السلم أخرجونى فأصبحت بلا عمل ، وكان جرحى ينكأ أحياناً . لكنى التحقت بخدمة شركة الهند الشرقية ، فحاربت الفرنسيين في معارك ست وإني لوائق من أنى لو كنت أحسن القراءة والكتابة ، لرقيت إلى منصب عريف . غير أن الحظ أخطأنى ، فلم أرق لأننى ما لبثت أن مرضت فأذن لي بالرجوع إلى بلادى مرة أخرى . وكان في جيبى أربعون جنياً في بداية هذه الحرب . وما كان أشد رغبتى في أن أعود إلى بلدى لأنفق ما جمعته من النقود . ولكن الحكومة كانت في حاجة إلى الرجال ولذا عادوا بي إلى الخدمة البحرية قبل أن أضع قدمي على أرض وطني .

« وقد رأى العريف أنني كنت امرءاً عنيداً . وأقسم جهدي يمينه أنى كنت أعرف عملي حق المعرفة ، وأنى كنت أتظاهر بالكسل . ولم أكن علم الله أعرف شيئاً من عمل البحر ، ومع ذلك فقد كان يضربنى دون أن يعرف هو سبب ذلك . لكن الأربعين جنياً ظلت معي ، وكان ذلك يعزى بعض التعزية ؛ ولقد كان

مقدراً لى أن أحتفظ بالنقود إلى هذا اليوم ، ولكن سفينتنا وقعت فى أيدي
الفرنسيين ففقدت كل شىء .

« وحمل بجاتنا إلى برست فمات عدد كثير منهم لأنهم لم يألفوا الحياة فى
السجون ، أما أنا فلم يكن يضيرنى ذلك شيئاً إذ كنت قد تعودته . وكنت
نائماً فى إحدى الليالى على مهاد من الألواح تدثرنى غلالة دفيئة ، فقد كنت
مغموراً بالنوم المريح . فأيقظنى العريف وهو يحمل مصباحاً فى يده .
قال جاك : أريد منك أن تضرب عنق الحارس الفرنسى هناك ، فقلت وقد
حملت نفسى على الاستيقاظ ، إن مؤازرتى لك فى هذا الشأن أمر بسيط
عندى . قال اتبعنى ، فإنى أرجو أن نستطيع القيام بالعمل حالا . فنهضت ،
وعقدت غلاتى على وسطى فقد كانت كل ما أملك من ملابس ثم مضيت
لأقاتل الفرنسيين . إنى أكره الفرنسيين لأنهم جميعاً عبيد ، ولأنهم يلبسون أحذية
من الخشب .

« ومع أننا لم نكن مسلحين فإن إنجليزياً واحداً يغلب خمسة من الفرنسيين ،
فى كل وقت وأن . ذهبنا إلى حيث وقف حارسان فاندفعنا نحوهما ، وقبضنا
على ذراعيهما فى لحظة ، وقذفنا بهما إلى الأرض ، ومن هناك اندفع تسعة منا
معاً إلى الميناء ، فاستولوا على القارب الأول الذى صادفناه ، وخرجنا من الميناء
فأبحرنا . ولم يمض على ذلك ثلاثة أيام ، حتى وقعنا أسرى فى يد قائد السفينة
الحربية (دورست) ، وقد سر هذا القائد بالعدد الذى استولى عليه ورضينا
نحن بما كتب لنا . لكن نصيبنا لم يكن بالحسن الذى ارتقبنا فقد وقعنا أسرى
خلال ثلاثة أيام فى يد السفينة (بومبادور) ، وكانت ذات أربعين مدفعاً فى
حين لم يكن معنا إلا ثلاثة وعشرون . فأسرنا بعد قتال استمر ثلاث ساعات .
وكنت شديد الإيمان بأننا كنا نحن الذين يجب أن يكتب لهم الفوز لو كان
عدد الذين آزرونا من خلفنا أكثر . كنا إذن استولينا على الفرنسيين ؛ ولكننا

مع الأسف فقدنا جميع رجالنا عند ما أشرفنا على الفوز .

« وهكذا وقعت مرة أخرى في أيدي الفرنسيين ، ولو أنه رُجع بي إلى برست لقاسيت شديد الآلام . لكن حسن الطالع أعادنا بالسفينة (فايبر) . آه .. وقد كدت أنسى أن أخبرك بأنني جرحت في هذا القتال في مكانين ، فأضعت أربعاً من أصابع يدي اليسرى كما فقدت ساقى . ولو قد أسعدنى الحظ بفقدان ساقى ويدي على سفينة الملك لا على سفينة العريف ، لمنحت اللباس والطعام بقية حياتى . لكن ذلك لسوء طالعى لم يقع . إن بعض الناس يولدون وفي أفواههم ملاعق من الفضة وبعضهم يولد وفي فمه مغرفة من الخشب . ومهما يكن من شيء فإننى أشكر الله لأنى أتمتع بصحة جيدة ، وسأحب الحرية ، وأحب إنجلترا ما حييت . الحرية والثروة وإنجلترا إلى الأبد » .

قال هذا واختفى يطلع في مشيته ، وخلفنى مفعماً بالإعجاب من جرأته وقناعته . ولم أملك نفسى بعد ذاك من الاعتقاد ، بأن معاناة التعاسة والشقاء تعرفك إليهما وتفهمك إياهما أكثر من دروس الفلسفة . وهذه المعاناة نفسها أجدر أن تعلمك الكراهية لهما والاشمئزاز منهما .

بين الحَرَمين

كان عبد الباسط يرضى عن شيئين في دنياه ويسخط على شيئين : كان يرضى عن اسمه ومهنته ، ويسخط على الحياة جملة ، وعلى جاره سليم . وهو يعرف لماذا يحب اسمه ، ولكنه لا يعرف لماذا يحب مهنته . إنه عطار ، وإن الزقاق الذى يعمل فيه من المدينة لضيق متعرج مظلم . وليست المهنة رابحة ، فقد ظل طوال عمره يحاول أن يتخلص من مكر صاحب الدار التى يسكنها بالأجرة ، بأن يبنى له داراً صغيرة يسكنها ، لكنه ما استطاع أن يفعل شيئاً من ذلك على الرغم من طول جهد واقتصاد .

أما اسمه فإنه يعرف لماذا يحبه . لم يسمع فى عمره أن إنساناً آخر كان يدعى «عبد الباسط» . ولذلك كان يشعر بتفرد يدعو إلى الزهو والخيلاء . فإذا قيل عبد الباسط فى الحى الذى يسكن فيه لم يدل هذا على غيره ، وإذا قيل «عبدالباسط» فى الزقاق الطويل الذى يعمل فيه لم يدل هذا على غيره كذلك . لكن هذا لم يكن كل السبب فى أنه كان يحب اسمه ويعجب به وبنفسه معه . بل إنه يذكر فى جلاء مرة كيف ابتاع منه شيخ من شيوخ الدين فى البلدة مسواكا فقال له وقد سمع الشيخ من جاره أن اسمه «عبد الباسط» :

— اسم جميل ، أتدرى قول النبي صلى الله عليه وسلم يا عبد الباسط ؟

فقال عبد الباسط بلهفة : لا يا مولاي .

— قال الشيخ : النبي قال : خير الأسماء ما حمّد وعبّد :

سمع عبد الباسط هذا فبدا عليه أنه لم يفهمه فأوضح الشيخ له في سرعة معناه ، ثم قال في مزاح :

— إني أرى على جبينك أنك ستحج بيت الله الحرام .

فلم يحر عبد الباسط جواباً ولكن كلمات « بيت الله الحرام » اخترقت أذنه في حدة ورست في ذهنه . وانصرف الشيخ ولم يعد . لكن عبد الباسط لا ينسى وقار ذلك الشيخ وشدة بياض لحيته وإشراق وجهه وصباحة محياه . ومع أن سنوات عديدة الآن قد مرت على حديث الشيخ فإن عبد الباسط ما يزال يذكر ذلك الشيخ ، بل إن ملامح وجهه لتزداد رسوخاً في ذهنه كلما مرت الأيام وإنه اليوم ليبسم إذا ذكر الشيخ « أنك ستحج بيت الله الحرام » . وليست كراهية عبد الباسط لجاره سليم مجهولة السبب عنده ، أو عند أصحابهما من بائعي السوق المجاورين . فإن عبد الباسط كان منذ انصراف الشيخ عنه يوم ابتاع السواك إلى اليوم يذكر لجيرانه وللناس أنه « سيحج بيت الله الحرام » وأن اسمه خير من أسمائهم جميعاً ، فإن الشيخ قد امتدحه ، وإن النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً يقول : إن اسمه جميل .

أما لماذا يكره عبد الباسط الحياة كلها فسؤال لا يدرى له جواباً . كان دائماً يتذمر فإنه إلى اليوم لم يجمع شيئاً من المال يستطيع به أن يبنى بيتاً صغيراً يأوى إليه ، وكان دائماً يتذمر في نفسه من أن المال القليل الذي جمعه لا يكفي للحج إلى بيت الله الحرام .

وسمع مرة أن الدراهم التي يجمعها المرء في سبيل أن يتزوج أو يحج أو يبنى بيتاً دراهم ميسورة : يطرح الله فيها البركة : . وهو قد تزوج ودفع مهر الزواج وتضايق من ذلك ولم ييسر له المال الذي استدانه من أجل أن يتزوج ، لكنه ظن أن الحج خير من الزواج . وأخذ الآن يجمع المال من أجل ذلك . ولم

يكن يعرف أحد في الدنيا حتى ولا امرأته أنه ادخر شيئاً . لقد كان يجمع الدائق إلى الدائق في صرة صغيرة في ثقب في جدار مظلم من الدكان لا يدرى به أحد . واستمر في ذلك زمناً . وأخيراً عزم على أن يحج إلى بيت الله الحرام . وأخذ يبحث سرّاً عن الطريق إلى مكة وإلى المدينة المنورة . فعرف طريق القوافل التي تسير من بعلبك إلى معان ومنها إلى تبوك ثم إلى المدينة المنورة فمكة المكرمة . ولم يكن يدرى عندما ذكر له الشيخ ذو اللحية البيضاء « بيت الله الحرام » صلة ذلك بمكة أو بالكعبة المشرفة ، لكنه الآن عرف ، فقد طالما سأل في السنوات الماضية سرّاً عن طريق الحج وعن زاد الحاج فيه من طعام وشراب وعما يحتاج إليه من نفقات ، كما عرف مفاوز الطريق ومخاوفها وانقطاع بعض الحاج فيها .

لكنه صمم العزم ، فقد كان سليم يشحذ همته لذلك ، حينما كان يسخر منه ومن اسمه ومن كلام الشيخ له بأنه سيحج بيت الله . وفجأة أعلن ذلك السفر ، فاضطرب له أهله واضطرب له أهل السوق جميعاً وتغيظ منه سليم أيما تغيظ . وتحدد اليوم الذي سيغادر فيه البلدة . ولأول مرة بدأ سليم ينظر نظرة احترام إلى عبد الباسط . قالت له نفسه : « لا بد الآن وأن يكون هذا الرجل قد ملك من المال للحج وغير الحج ما لا قبل لي بمثله ، ولا بد وأن يكون من التدين والانقطاع لله ومن التصميم والحزم على غير ما كان يبدو لي » . وتوجس سليم شرّاً من أن يكيد لعبد الباسط كيداً آخر أو يهزأ به أو يتحدث للناس عنه حديثاً فيه سوء .

واحتمل عبد الباسط ما جمع من الدراهم . واحتمل كذلك شيئاً من الزاد من تمر وعسل وخبز ، وأغلق دكانه وودع امرأته وقبل ولده وابنته بعد أن خلف

لهم ثلاث ليرات لتسد نفقاتهم وحاجاتهم أثناء الأشهر الثلاثة التي يحتاج إليها لقضاء فريضة الحج .

وكانت القافلة تتألف من عشرين حاجاً ، فيهم امرأتان عجوزان ، ويحملهم جميعاً خمسة عشر جملاً . ولم يستأجر عبد الباسط جملاً وإنما قيل له إنه يستطيع المشى وإنه يمكن أن يركب حين يتعب حاج من الركب فيتنحى له عن راحلته دون أن يتقاضى منه شيئاً ، واستطاع أن يعلق زاده في رحل جمل لقاء أجر زهيد وأن يمضى راجلاً .

وخرجت القافلة في الصباح الباكر ومضت في طريقها إلى الجنوب على معالم عرفها الحادون عشرات السنين كابراً عن كابر تقصد المدينة المنورة . وأقبل الليل وحطت القافلة رحالها عند بئر خربة لا يبدو من آثارها إلا أحجار متناثرة . وأطبق الظلام فدخل الخوف الرهيب في فؤاد عبد الباسط لأول مرة . وعاد أدراجه فتذكر كلاماً كثيراً ألقى في روعه منذ أخذ الأهبة لهذا الرحلة . ووصل ذلك بما عرف عن فقر حاله ، وبما حاول طوال عمره من جمع للمال في سبيل أن يبنى لنفسه بيتاً وبما أنفق من جهد في سبيل هذه الحجة التي يرجو أن تكون آمنة مبرورة ، وبما عرف من نفسه من كراهية لهذه الحياة لا يدرى لها سبباً . وزخرت نفسه بهذه الهواجس مجتمعة فنكس رأسه وأرخى لنفسه العنان فانحدرت دموع عينيه ورأى هذا رائد القافلة فأقبل عليه يحدثه :

— ولكنك يا عبد الباسط بالفرح والسرور أجدر .

قال عبد الباسط :

— تعبت من سفرى اليوم وذكرت زوجى وولدى فأصابنى ما ترى .

إنى تواق إلى مشاهدة (الروضة البهية) وإلى الكعبة الشريفة ولكن هل

أدرك غايته وأعود إلى أهلى .

قال الرائد :

— وما الذى يورد هذا الخاطر إلى نفسك ، لقد مررت بهذا الطريق مرات ومرات وها إنى ما أزال حيًّا ، أفما تعرف أن الأعمار مقدورة ؟

قال عبد الباسط :

— مقدورة ، لكن ألم يمت أحد ممن رافقوك جوعاً أو عطشاً أو تاه فى هذه الببداء التى لا أول لها ولا آخر ، ثم لم يرجع إلى أهله ؟

قال الرائد :

— وقع ذلك ولكنه كان نادراً .

وأحس عبد الباسط بهبوط نفسه فتهالك ولوى برأسه وأخذ يبكى . ولم يكن جبناً ولا أحس بخوف من الموت ، لكن عواطف مختلفة كثيرة انتابته فوجد المخرج فى البكاء .

إن المال الذى معه والزاد لا يكفیان الرحلة ، فإن بينه وبين المدينة المنورة رحلة شهر وأسبوع . وليست المدينة على كرامتها ووجود الروضة الشريفة فيها موئل حج ، فالحج عرفة وبين المدينة وعرفة مسيرة اثنى عشر يوماً . ثم هو يجب أن يعود هذه الطريق كلها أدراجه . وهو يتكىء الآن على صرة ثيابه فى مؤخرة الراحلة التى ألقى بمناعها للراحة متعباً من آثار يوم واحد فكيف بأيام وأيام . وهو الآن قد أدرك أنه لم يتعود المشى من قبل على رغم ما كان يتصوره من تعود المشى بما كان يطويه من المسافات بين بيته ودكانه لحاجة أو لغير حاجة . وهو اليوم قد أدرك كيف اشتد الجهد بمسافرين حاجين من قبل فعجزوا عن السير فذهبوا تأهين فى الصحراء ، لم يعودوا إلى أهليهم — (٥)

فافترسهم وحوش البادية . وهنا انكمشت أعضاؤه بعضها على بعض وتذكر زوجته وطنليه فازداد اضطرابه وتفرقت نفسه . ولم ينقذه من هذا كله إلا أنه ذكر أن جاره سليم كان يريد به سوءاً ويتمنى أن لو تحول الحوائل بين عبد الباسط وحجته . وذكر مع هذا كذلك أن الأعمار محدودة وأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، فعلت نفسه واشترأت همته وابتسم قليلاً . وخيم الظلام فلم يسمع إلا تجاوب أصوات الكلاب عن بعد سحيق تقطع سكون الصحراء العميق . وهدأت أصوات الراحلين والقافلة ، وحتى أصوات الجمال تجترّ طعامها قد همدت ، إلا أقلها .

وأفاقت القافلة فجر اليوم التالى فصلى الركب الصبح على أنوار الأفق المشربة بالحمرة ، الندية بالنسيم الجاف ، وصلى عبد الباسط لكن آثار الأسى الذى تبدى على حاله البارحة يوم أوى إلى فراشه كانت ما تزال تنتزى من نفسه وقسمات وجهه . وكانت تلك الصلاة من صلواته القليلة التى لم يستطع فيها أن يتوجه إلى الله بكل جوارحه ، والتفت إلى أعماق نفسه يبحث عن أسباب هذا التردد والاضطراب اللذين لم يعهد لهما هذه الحدة .

ولمع فى ذهنه أنه ضيق اليد عما يكفيه لرحلة الحج كلها ، وذكر قول الله عز وجل عن « حج البيت من استطاع إليه سبيلاً » ، وخطر بباله قول أحد المشايخ فى المسجد مرة أن الذى يعمد إلى الحج وهو فى غير سعة يأثم . وأقضى تفكيره أن يشعر أن سيأثم بدل أن يصيب ثواباً ، ثم استدرك ، فإن الله عز وجل لا بد وأن يشبهه على قدر مشقته . واطمأن إلى هذا ومضى يومه ذاك مع القافلة هادئاً مطمئناً أياماً عديدة يشبه بعضها بعضاً حتى أخذ كلام ركب القافلة يدور على المدينة المنورة .

وأطلت منائر المدينة الخالدة وضجت ألسنة القافلة بالدعاء « لبيك اللهم لبيك ». ولم يكن عبد الباسط يحفظ هذا الدعاء على بساطته لكن خفقان قلبه واضطراب نفسه كان أشد من ضجيج القوم كله . ودمعت عيناه ، فإن حبه للنبي صلى الله عليه وسلم كان أكثر من حبه لأى شىء آخر . وقد أحب الروضة النبوية أكثر مما أحب مكة نفسها وعرفات . على هذا نما قلبه سواء أصبح اتجاه هذا النمو أم لم يصبح .

وأقبل على الروضة وتمسك بنافذتها وتهالك . لقد ذكر كل شىء هناك : ذكر زوجته وولديه وجيرانه فى السوق جميعاً ، ودعا لهم واحداً بعد واحد . فلما مر بخاطره سليم توقفت نفسه عن الدعاء واعتملت عواطفه لكنه اقتحم هذا الاعمال وتغلب على ذلك التوقف وتدفقت نفسه فقال فى صوت عال مسموع « اللهم اغفر لسليم ! »

وكان إلى جواره وهو يقول هذا عثمان التاجر الغنى الذى رافقه فى القافلة . فسأله .

— ومن سليم هذا يا عبد الباسط ؟

قال عبد الباسط — إنه جارى صاحب دكان .

قال عثمان — وهل هو غنى ؟

قال عبد الباسط — لا أدرى أظنه مثلى .

قال عثمان — ولم تستغفر له ؟

قال عبد الباسط — إنه يستحق هذا إنه جارى وإن النبي ، وأشار إلى الروضة الشريفة ، أوصى بالجار . ولقد ذكرت الآن إيراد الشيخ فى المسجد لقول النبي بأنه صلى الله عليه وسلم ظل يوصى بالجار حتى ظن الناس

أنه سيورثه . وما الناس في الدنيا كلها إلا جيرة . ثم قال والدمع يطفر من عينيه : « إني لأحب سليما بعد اليوم . غفر الله لى وله » .

وانفتح لعبد الباسط أفق جديد منذ الآن . والتفت في نفسه إلى الوراء . لقد كان يضيق بزوجته كل الضيق أحيانا حتى كان يضربها ويشتمها ، ولكنه اليوم يرمى بعين إلى بلدته وبأخرى إلى هذه النافذة التى يصلى إلى جوارها فيرتعش خجلا مما كان يفعل ، وأقسم فى نفسه ألا يفعل من ذلك شيئا بعد الساعة . وانعكس فى مخيلته أنه كان يطفف الكيل إذ يبيع الناس ، فأقسم أن لا يفعلن ذلك بعدئذ .

وغدت القافلة منذ الصباح وأقبل على مكة وأحرم لأول مرة . وفكر كثيرا على طريقتيه فى لباس الإحرام هذا . ما أبسطه ! قطعتان من القماش ليس فيهما خيط بإبرة . ما أقل تكاليفهما ، وما أحسن الدنيا لو أن الناس يصطلحون فى كل مكان منها على هذا اللباس البسيط . إذن لكانت قطع أربع من هذه كافية لكل واحد من أفراد العائلة . وعرف بالحساب كم يكلف هذا كله لعائلته ... ثم خطر بباله أن الطقس فى بلده لا يلائمه هذا اللباس ، فداخله الغم من جديد ، وأحس مع هذا بقواه تتداعى . فلما كان المساء أناخ الركب واستراح ، أما هو فشعر بحمى شديدة تنتابه . وكان رائد القافلة إلى جواره فسأله عبد الباسط .

— أبعيدة مكة من هنا ؟

قال الرائد — مسيرة يوم واحد .

فافتقر ثغر عبد الباسط عن ابتسامة مجهودة . ونظر إليه الرائد بإنعام فإذا به يحتاج وتشخص عيناه . فارتاع الرائد لهذا واقرب من عبد الباسط فسمع منه قوله وهو يجود بأنفاسه .

— ليت الناس يلبسون كالحجاج المحرمين . كنت أستطيع دائماً أن أكسو أولادى بعبلك . قبلهم عنى متى عدت . قبلهم وحي زوجتى الحبيبة . يفقدونى ، لكنهم يلقون الله .

ومضت القافلة فى الصباح الباكر تدلف إلى أم القرى ، تخلّف فى مراحها أثراً يكاد لا يبدو للناظر . كان ذلك أثر عبد الباسط وقد وورى التراب . وكان شهيداً من حجاج الله فى جوار بيت الله الحرام .

ملاك الحب

لأميل زولا

هل تسمعين المطر يا نانو يسفع النوافذ ، وإلى الريح تشهد في الدهليز ؟
إنها ليلة مخيفة ! ليلة يرتعد فيها البائسون على أبواب الموسرين ، الذين يرقصون
داخل بيوتهم في غرف متألقة بالنور ، تتدلى من سقفها ثريات المصابيح .
انزعى حذاءك الحريري هذا وتعالى فاجلسي أمام الموقد المتوهج . اطرحي عن
كاهلك هذه الأناقة البالغة ، فإنني أريد أن أحدثك بقصة خيالية هذه
الليلة .

فقد رُوي في ماضي الزمان يا نانو أنه بنى على رأس جبل حصن يرد
طرف الناظر إليه . كان كتلة متراصة من الأبراج والمتاريس والأسوار ذات
السلاسل الغليظة . وقف الرجال وقد أسبغ عليهم الزرد والفلواز ، من رؤوسهم
إلى أقدامهم — وقفوا ليلاً ونهاراً يحرسون قلاعه . ولم يكن أحد من زوار هذا
الحصن ليتلقى شيئاً من البشر أو الترحيب ، إلا من كان سفاكاً محارباً . كان
سيد الحصن يا نانو هو الكونت أنجيورانند .

ولو قد رأيتِ إلى هذا المحارب القديم يحوس خلال الشرفات الطويلة وسمعت
انفجار صوته الحشن الخفيف لأصابك رعب شديد ، كان مثله يصيب (أوديتا)
ابنة أخيه ، وكانت أوديتا هذه صغيرة طاهرة جميلة . أما رأيت في الربيع مرة
أقحوانة مفردة بين أعشاب القريص تفتح وريقاتها في الصباح الباكر تلمس

لثمات الشمس الأولى ؟ كانت أوديتا مثل ذلك ، تعيش بين الفرسان الشداد
قيّمة على عمها ترعاه وتكلؤه . وكانت إذا لمحتة وقفت فجأة عن اللعب وامتلأت
عينها بالدموع . نمت فأضحت طويلة جميلة ، وكانت تنهد من شيء لا تعرف
معناه ، كما كان يستولى عليها حين ترى عمها اللورد ، رعب شديد لا يوصف .

كانت غرفتها في برج صغير منعزل من الحصن ، تضيئ وقتها في زركشة
الأعلام الجميلة . وكانت تجد عزاءها في التقرب إلى الله بالصلاة وفي التفرج
من نافذتها إلى خضرة الأرض السندسية وزرقة السماء اللازوردية . وكم كانت
تفريق في الليل من فراشها فتسعى إلى النافذة وتنظر إلى النجوم . وما أشد ما كان
قلب هذه الصبية المدركة يطفر إلى الفضاء السماوي الفسيح ، تسأل الملائكة
في جو السماء عما كان يقلقها هذا القلق كله . وعلى أثر هذه الليالي المؤرقة ،
وهذه الحوافز الأولى إلى الحب الذي لا تدري كنهه ، كانت تمر بها حالات
غريبة تدفعها إلى أن تعانق الفارس القديم عمها الفظ . ولكن نبرة قصيرة ،
أو نظرة عابسة من هذا كانت تكبح جماح دوافعها فترتد إلى إبرتها مرة أخرى .
أرى الحزن يغشاك يا نانو من أجل هذه الصبية البائسة ، أجل فقد كانت أشبه
شيء بزهرة فواحة الشذى . وكان حبها وشذاها متهينين محترقين .

وبينما كانت أوديتا البائسة ، تجلس يوماً إلى نافذتها تتابع بعينها طيران
حمامتين ، إذ سمعت صوتاً ناعماً من أسفل ، عند قاعدة جدار البرج ، فمالت
بنفسها إلى الخارج فرأت شاباً جميلاً علت شفثيه تغريدة ، وأخذ يلتمس الخير
من ساكني الحصن . ومع أنها أصغت الإصغاء كله ، فإنها لم تفهم ما قال .
ولكن الصوت الجميل أقلق قلبها فجرت دموعها برفق على خديها وبللت غصن
زهرة كانت تمسك بيديها .

لكن أبواب الحصن لم تفتح وصاح رجل مسلح من أعلى الجدران :

« ارجع إلى الورا ! لا يدخل هنا إلا جنود محاربون » .

واستمرت أوديتا تنظر من النافذة إلى الخارج ، وأذنت للزهرة أن تسقط من يدها وكانت مبللة بدموعها . فسقطت عند قدمي صاحب الصوت الغرد الجميل ، فرفع هذا عينيه ، فلما رأى شعر الصبية قبل الغصن وقفل راجعاً . وكان في رجوعه هذا يقف أثر كل خطوة يتلفت إلى الخلف . وبعد أن اختفى أوت أوديتا إلى مخدعها فصلت كثيراً وحمدت ربها حمداً لا تدرى دواعيه . وأحست أنها سعيدة وحلمت ليلتها حلماً جميلاً ، فإنها رأت الغصن الأخضر الذي ألقته به إلى الشاب مرة أخرى . وأخذ أمل يبرز بزوغاً هادئاً جميلاً يرتفع على أجنحة ملونة ، ويرتدى حللاً خضراً .

ولاح لها شبح يقول : « أوديتا . أنا ملاك الحب . أنا الذي بعثت إليك بالشاب (لوا) هذا الصباح — إنني أطوف بالعالم أفتش فيه عن أفئدة فارغة وقلوب وحيدة ، أجمع بين الذين يتهدون في الوحدة . إنى أزور كوخ الفلاح كما أزور قصر اللورد ، وأجمع ما بين عصا الراعي وصوبلجان الملك . ألقى بالورود عند أقدام الذين أوليهم الحماية والعطف ، وأغدق عليهم من عطايي كل غال وجميل ، فأحفز قلوبهم إلى الحفقان فرحين . إن منزلي لبين الحضرة النامية والغابات الجميلة . أرقد في الشتاء إلى مواقد النار المتألقة وأطمئن إلى غرف الأزواج الهائنين . أملأ المسالك التي أمر بها رقة وقبلا . فلا تبتسى أكثر مما ابتست يا أوديتا ، فأنا ملاك الحب جاء يحفف مآقيك » .

ثم اختفى عن الأنظار متوارياً في الأزهار التي انطوت على نفسها فصارت براعم . وأنت يا نانو تعرفين ولا ريب أن ملاك الحب وجوداً حقيقياً . فانظري إليه يرقص في بيتنا وارثي للتاعسين من الناس الذين لا يؤمنون بوجوده .

وإذ نهضت أوديتا في اليوم التالي كان شعاع من النور قد امتد إلى غرفها

فأضاءها ، وكان تغريد الطيور يملأ برجها العالى ونسيم الصباح قد اختلط بأريج الزهر ، فنهضت سعيدة ، وأنفقت نهارها كله تغنى ، يملأ صدرها أمل أن يتحقق ما تنبأ به ملاك الحب . وكانت أحياناً ترمى بنظرها إلى الحقول ، تبسم لكل طير وتحس في نفسها شيئاً يدفعها إلى السعادة ويحملها على أن تصفق بيديها فرحاً ومرحاً .

فلما كان المساء انحدرت إلى القاعة الكبرى فرأت الكونت أنجيوراند وإلى جانبه فارس يصغى بحرمة ، يستمع إلى ما يقول . فجلست أوديتا إلى الموقد هادئة مطمئنة تعمل بمغزها .

وكانت أثناء هذا ترمى ببصرها من آن إلى آخر إلى الفارس الغريب ، فلمحت الغصن الأخضر مرة ثانية وقد قبض عليه بإحدى يديه ، وكانت هذه إلى جانب صوته العذب أمانة كافية تتعرف منها إلى (لوى) . وتملكها فرح كادت تضج منه ، ولكنها انحنت إلى الأمام نحو النار تخفى فرحها وتحرك النار بقضيب طويل من الحديد . وكانت ألسنة اللهب تندفع إلى الأعلى في معرض رائع حين تطايرت منها شأبيب مضيئة بدا من بينها ملاك الحب باسماء ؛ ثم نفخ عن ثوبه الحريري ذرات الحطب المحترقة وقد بدا كأنه حب الذهب الخالص ، وانسل إلى القاعة لا يراه الكونت فوقف خلف الشاب والشابة بينما مضى المحارب القديم يروى قصته مفصلة ، عن معركة مروعة خاضها ضد الأعداء . وهنا أخذ ملاك الحب يقول في لهجة منخفضة ناعمة :

« فليحب أحدهما الآخر يا ولدى ، ولتركا للشيوخ ذكريات الشباب ورواية الأفاقيص الطويلة . فلتكن قبلاكما الأصوات التي تترج بأصوات قطع الحطب المحترقة ، إن في الوقت متسعاً لتخفيف آلام الشيخوخة بذكريات

ساعات الصبا الجميلة . إذا أصاب أحدهما الحب فليصمت فإن نظرة واحدة تغني عن حديث طويل . فليحب أحدهما الآخر يا ولديّ وليترك الثروة للشيخ . »

ثم غطى الشابين بجناحيه فغمرهما غمراً لم يستطع معه الكونت الذي كان ماضياً في أحاديث القتل والحرق والتدمير أن يرى القبلة الأولى التي طبعها لوا على جبين أوديتا الخائفة .

وهنا يجب علىّ يا نانو أن أخبرك شيئاً عن جناحي ملاك الحب الجمييين . فقد كانا شفافين كالزجاج رقيقين كأجنحة الفراش . لكنهما إذا ما أرادا إنقاذ حبيبين من خطر عادا كشيئين معتمين يواريان ما خلفهما ويردان سمع من يسرق أصوات القبل . ومضى الشيخ يتحدث عن حروبه ، بينما كان (لوا) يداعب حبيبته الجميلة أوديتا .

فما أعجب هذين الجناحين ، فقد علمت أن الشابات يكتشفهما من أنفسهن ، كما قد علمت أن كثيرات منهن قد أخفين أنفسهن عن عيون أجدادهن . أو ليس هذا صحيحاً يا نانو ؟

فلما أنهى الكونت حديثه الطويل اختفى ملاك الحب في النار ، ومضى لوا لطيته يستودع شاكرّاً سيده ، ملقياً بقبلة وداعية إلى أوديتا . وكانت هذه قد امتلأت بالفرح حتى حلمت ليلتها تلك ، بجبال كسيت بالزهور وأنيرت بملايين النجوم ، يربو ما يرسله أى واحد منها من النور على ما ترسله الشمس كلها .

ونزلت في الصباح الثاني إلى البستان تطفر من مكان إلى مكان . وفي أحد هذه الأمكنة صادفت رجلاً مسلحاً فانحنت له ، وكادت تتعداه لولا أنها رأت الغصن الأخضر في يده مبللاً بالدموع . فعرفت حبيبها لوا إذ جاء إلى القصر مرة أخرى متخفياً من جديد . فأجلسها إلى ضفة ذات عشب ، قريبة

من عين ماء ، وحدق في عينيها وحدقت في عينيه وقد أصابهما فرح شديد ، فقد كان يرى أحدهما الآخر الآن في رائحة النهار . وغردت البلابل فأحس المحبان أن ملاك الحب يطيف بهما في الجو قريباً منهما .

ولست أرغب في أن أخبرك ماذا سمع الشجر ذلك الصباح ، لكنه تمایل طرباً لما رأى من منظر الشابة والشاب ، يجلسان هناك يتحدثان ساعة بعد أخرى حديثاً طال حتى تمكن بلبل أثناءه من أن يبنى عشه في شجرة مجاورة .

وفجأة سمعا وقع خطى الكونت أنجيوراند في البستان ، فاحتاج المحبان ، لكن ماء العين الجارى صفق تصفيقاً عذباً - أعذب من قبل ، ونهض ملاك الحب من المجرى البلورى تعلو وجهه ابتسامة فحجب المحبين بجناحيه ووقف بينهما وبين الكونت الذى أخذه العجب مما يسمع من صوت لا يرى له مصدراً .

وقال ملاك الحب وقد عانق صديقيه في صوت منخفض عذب :

« أنا الذى أحمى الحب . أنا الذى أعمى أبصار الذين نضب معين الحب من قلوبهم وأصم آذانهم . فليحب أحدهما الآخر أيها العزيزان لا يخاف شيئاً . فليحب أحدهما الآخر حيث كنما . إننى معكما أرمعا كما . أرسلنى الله إلى الناس فلا ينالكما ضرر بما يهزعون من قداسة الحب . إن الله قد وهبنى هذين الجناحين الجميلين وقال اذهب فاحمل قلوب الصغار على الطرب . فليحب أحدهما الآخر فى رعايتى وحراستى . ثم اختفى بعد أن جمع قطرات الندى من الورق ، فإن هذه القطرات طعامه الوحيد ، واحتمل معه أوديتا ولوا فى عناقهما الأبدى . »

وستسألينى ماذا صنع المحبان بعد ، أيتها العزيزة . لست أستطيع أن أخبرك فىنى أخشى ألا تصدقينى وأن تثور نفسك من سعادتهما . ولكنك تحبين الاستطلاع أيتها الحبيشة ، فسأرى فى أن أشبع رغبتك هذه .

فلتعلمى أن ملاك الحب حوم هنا وهناك حتى جن الليل ، فلما أراد أن يفصل بين المحبين امتنعا عليه حتى بذل لهما وعوداً خلاصة . ويبدو أنه قال لهما قولاً جميلاً أضواء وجهيهما وفتح عينيهما واسعتين مما أصابهما من سعادة . ولما فرغ من كلامه ورضيا بما وعد لمس جبهتيهما بعصاه السحرية .

وفجأة يا نانو ! آه ما أوسع عينيك ، وما أكثر ما أقدر أن تضربني الأرض بقدميك الصغيرتين إذا أزمعت أن أكف عن حديثي . إن (لوا) وأوديتا تحولتا إلى غصنين أخضرين كبيرين جميلين إلى حد لا يقدر عليه إلا بنات الخيال ، وهناك تعانقا جنباً إلى جنب والتفت أوراقهما ثم نجمت منهما أوراق رائعة ، وأخذتا يزدهران دائماً ويمزجان شداهما بالندى .

أما الكونت أنجيوراندي فيقولون إنه أمضى الوقت يعزى نفسه بما يروى كل مساء من قصص مكررة معادة .

والآن يا نانو سنسأل الشجر الأخضر حين نغدو إلى الحقول ، عن الزهر الذى نستطيع أن نرى فيه ملاك الحب .

قد يكون فى هذه القصة مغزى بسيطٌ أيتها العزيزة . غير أنى أفضيت به إليك على كل حال ، وهما نحن نجلس أمام هذا الموقد وأنا أشد ما أكون رغبة فى أن يلهمك الله حب هذا الشاب الذى روى لك هذه القصة ، وإلى نسيان مطر كانون ، هذا الذى يسفع النوافذ .

ثراء... وشرف

لا يدري جارتها كيف هبطت بينهم ، فإنها لا تخبرهن شيئاً عن نفسها على الرغم من كثرة ترددهن عليها . ولكنها جميلة الطلعة للغاية ، بارعة اللفات للغاية ، حلوة الحديث للغاية .

وكان مجيئها إلى البيت منذ شهرين ، لا يزورها أحد يمكن أن يقال عنه إنه قريب لها ، وليس لها إلا ابن سيئ التربية يناهز العاشرة ويقضى يومه كله في متابعة صبيان الحى . يضرب هذا ويجرح ذاك .

وكان الوقت وقت عطلة مدرسية ولذلك قرر الجيران أنها لم تجد له مدرسة لائقة تستريح بإدخاله إليها منه ومن شكايات جاراتها عليه .

وكانت السيدات المجاورات شديداً السؤال عن هذه السيدة الجميلة الرشيقة القديرة من هي ؟ ابنة من ؟ ومن أية بلدة ؟

كان اسمها (بديعة) وكان اسم ابنها (نهاد) ، وربما كانت من بيروت فإن في نبراتها شيئاً من نبرات أهل بيروت في الحديث ، ومع هذا فلا يمكن القطع بشيء فقد تكون على لباقها قديرة على شيء من إمالة أهل بيروت في تحدثهم — كانت في نظر جاراتها قادرة على هذا لو أرادته وقادرة على ما هو أعظم منه .

وذهب استطلاع جاراتها عبثاً ، فقد كانت ألبق منهن جميعاً في إدارة الحديث وتحويله بحسب رغبتها إلى أى اتجاه شاءت . وكانت ساحرة يدخان

عليها ليعرفن شيئاً عنها فيخرجن وهن بها أجهل من ذى قبل ، وأكثر حباً وإعجاباً مع ذلك من ذى قبل .

« لا بد وأن تكون ابنة عائلة طيبة كبيرة » - قالت إحدى جاراتها لأختها وهي تحدثها . فأجابت الأخت وقد أمنت على قول أختها :

« نعم ولا بد وأن تكون غنية ، فلولا ذلك ما تعلمت هذا العلم العالى ولما ظهرت بهذا المظهر الفاخر الأنيق . »

وأصاب الجارات إعياء موقت وقفن بعده عن البحث العابث حول هذه السيدة الجديدة الغامضة . ومضى على ذلك شهران آخران حين داهم بيت بديعة شرطى شرس يسأل عن أهل الصبي نهاد - أنبأتها بذلك خادمة جارتها ، والخادمة ترتعد خوفاً . فما راع اثنتين من جاراتها كانتا آنئذ عندها إلا أنها قامت ففتحت الباب وأقبلت على الشرطى تحدثه برباطة جأش .

« وما لنهاد يا حضرة الجاويش أرجو أن تخفف من حديثك ؟ »

فتراجع الشرطى خطوة عاثرة إلى الوراء وقد علت وجهه صفرة ماحوطة وقال : « إنه الآن يا سيدتى فى مركز البوليس فقد كان يقطع الشارع فداسته سيارة و . . . » فقاطعته بهدوء عجيب : « وهل جرى له شىء ؟ هل مات أيها السيد ؟ » فتجراً الشرطى وقال :

« كلا يا سيدتى فقد داس الدولاب ساقه فكسرها وها هو فى مركز البوليس مع السائق . وقد أرسلنى الضابط لكى أحضر أباه وقد وصفوا لى هذا البيت فمعدرة . . . » فقالت له : « انتظر قليلا فسأخرج معك بنفسى إلى المركز لأرى ما قد حدث ؟ »

وخرجت بعد ان ارتدت معطفها أسود ناعماً تكاد تتميز من تحته تقاطيع أعضائها المتناسبة .

ففضى الشرطى أمامها مطرقاً وهى من خلفه تطفر كما يطفر الظبي ، وقد خلّت أحد نقابين لها فبدا وجهها من تحت نقابها الآخر ساحراً فتاناً .

ودخلت نقطة البوليس ثابتة الخطى فرأت نهاداً مطروحاً فى أحد أركان المكان يبكى وجرحه يدمى وراها فعلى بكاؤه . لم تانتفت إليه بل مضت رأساً فسألت عن الحادث فوجم كل من كان فى المركز من رجال الأمن . ثم تصدى لها فى اضطراب واضح ضابط مهيب الطلعة أصلع الرأس مرتفع الجبين واضح المحيا يناهز الأربعين من عمره فقال :

« سنرسل ابنك هذا يا سيدة ، أليس ابنك هو ؟ نعم ، سنرسله إلى طبيب الحكومة لفحص أولى » ، وها نحن قد أجرينا مع السائق التحقيق القانونى وسنبغلك قرار المحكمة بهذا الشأن »

فصوبت إليه نظراً نافذاً كأنه السهم وأخذت تقول بهدوء :

« أما السائق يا سيدى فليس لى به حاجة وقد عفوت أنا عنه لينطلق فى سبيله إذا كان فى وسعكم أن تأذنوا له . وأما الصبي فحبذا لو وضعتموه فى المستشفى أيضاً فليس له أب وأنا لا أقدر على نفقاته » .

قالت هذا مسرعة فتململ رجال الأمن وتفرقوا من أما كنهم وتركت مركز البوليس مسرعة لا تلوى على شىء . ثم عادت بعد قليل فألقت فى أذن الضابط الأصلع شيئاً وانصرفت .

وقال الذى رآها فى الليلة التالية إنها كانت تمشى مشياً هيناً وقد ارتدت فستاناً أزرق طويلاً ومشت يرافقها ضابط المركز الأصلع يلبس بدلة سوداء اللون وحذاء لماعاً .

وقالت تحدثه :

« أريد أن تذهب بى الآن إلى أقرب مكان أستريح فيه . إن أعصابى قد

توترت ونفسي قد اشأرت ولن يفرج كرتي هذه إلا أن أطلق لنفسي العنان إلى أبعد ما يمكن . لا أريد أن أتقيد بشيء فقد طالما تقيدت . يكفيني كل ما مر - يكفي ، فإن شبح الماضي ليروعني . »

قالت ذلك ثم تنهدت ونظرت إلى وجه الضابط فقرأت فيه آيات الانكسار . ومال بها إلى ركن كالذي أرادت ثم جلسا إلى طاولة . . . وأخذت تتحدث :

« لا أعترف بك أنت نفسك ابن عم لي . ويحكم عائلة غنية لا تستطيع أن تعمل سيدة منها توفي عنها زوجها . أليس ابني ؟ أريد أن أقتله !! آكله وألوك قلبه بأسناني ؛ ألسم أهلي ؟ وددت لو كان لي من القوة والجرأة ما أذهب به بحياتي . نعم حياتي . ما الذي خلفه أبوه حتى تعتمدوا عليه ؟ ألسم ابتكم ، ويحكم ، جناة !! لن تظفروا بي سأمضي إلى النهاية ولن يحول دوني حائل . سأروى ظمأ نفسي . لن أقف عند حد أستطيع الوصول إليه . سأنتقم من نفسي ومن العالم كله . إن الذين أوصلوني إلى هنا هم الباغون الأندال - أنتم . كلا لن أتزوج من أحد . »

ثم استطردت مسرعة :

« لا ألومك أنت فأنت موظف ودخلك محدود ، وأبوك نفسه لا يوجد عليك . لكن أنا ، أليس عمي ؟ أتموت فتاة وعمها لا يعرف مبلغ ثروته الضخمة . ويحكم أليس لكم قلوب ؟

« سأنتقم من نفسي . أموت . كان لي أن ألوث شرفكم قبل أن أموت . لكن لا ، أنا المعنية بالأمر لا أنتم .

« أترى إلى هؤلاء الفقراء الصعاليك : خير منكم . لقد عشت بينهم وعرفتهم . ألم يمت أبوه ؟ هل قتلتة ؟ ألم ينقض أجله ؟ لم لم تسمحوا لي بالعمل ؟ لماذا لمس نفوسكم الشرف يوم علمت ؟ الشرف : سأتركه لكم ؟ هل هو ابني

وحدى فقط ؟ وسأذهب بعيداً جداً عنكم . لا يهملك أن تعرف إلى أين .
 أضعك خلفي وأهيم . أنا لا أدري إلى أين . ولكنني سأسحق قلبي بنفسى . »
 ثم ترنحت فتلقاها بيديه فأجهشت بالبكاء ، فجعل يبكي مثلها . وفي
 أثناء هذا انطلقت من بين يديه إلى حيث لا يعلم إلى الآن .
 وعاد الجارات يتحدثن عن بديعة . عاشت بينهن أربعة أشهر ثم اختفت
 لا يدرين إلى أين ذهبت .

يوم الميلاد

قسطنطين ترنييف

كان المكتب الذى يعمل فيه إيفان ديمتريفتش صاحباً جدياً . فقد كان طوال النهار مكتظاً بالعملاء ، كما كان عرضة لكثير من المراجعين الذين لا تتورع ألسنتهم عن الكلام السليط . وكان إيفان يعانى أوجاع القلب وتجتاح حياته أحداث جارحة أليمة . كان مقعده يجاور النافذة ، فإذا اشتد الصخب واللغط ألقي بقلمه ونظر من النافذة إلى الجو الماطر ، وإلى الساحة المغطاة بالثلج ، المنحدرة إلى ضفة النهر الهاجع تحت دثاره الجامد ذى الحواشى المصفرة ، وإلى الغابات القائمة القاصية .

ولكنه اليوم لم يجد متسعاً من الوقت ليجتلى مناظر الطبيعة ، فقد اجتمعت لجنة التموين أمس ، ومن المحتم الآن أن تُعَبَأ جميع الموارد على عجل ، وأن يقدم تقريراً فى الغد عن مصادر الوقود .

وكان إيفان أول من أمس قد تلقى نبأ رسمياً بأن ابنه الوحيد متياً قد قتل فى المعركة . لقد جاءه هذا النبأ مع البريد الأخير ، ففرض الغلاف فى غير اكتراث ، فلما شرع يقرأ ما كان مكتوباً فى الشريحة الصغيرة التى تحمل طابع وزارة الدفاع ، أخذت الحروف فجأة تمور أمام عينيه . كانت الغرفة صاحبة كالمعتاد ، فإن بعض السيدات بطاقيتهن الأحمر كنَّ آخذات فى جدال حار مع أحد الكتاب . وهدأ تَوّاً كل شيء ، وبدت الطاقات الأحمر طائفة كالأشباح على بعد شاسع .

وبذل إيفان جهداً عظيماً لكي يُهدئ روع نفسه ويقرّ الحال في نصابه ،
فتعالى الضميج في الغرفة إلى ما كان عليه من قبل .

ولم يلتفت أحد إلى إيفان أو يعنى به ، بل ظل الناس منهمكين في
أعمالهم الخاصة . وهنا دخل إلى المكتب أحد ذوى الحاجات ليستعلم عن
شئ ، ففتح إيفان له السجل وقضى حاجته ، لكنه عجب أيما عجب إذ
رأى أن شيئاً لم يتغير ، وأن الناس والأمور ظلت كما هي ، ونظر إلى ما حوله
فرأى الجدار الأخضر ذا الرقعة المعهودة ، ورأى النافذة التي تليه من اليمين كما
هي ، بما يعلوها من الثلج .

فغمزته للحال موجة من الحزن الذي لا يفتر ولا يجدى فيه العزاء ، وانفجر
عن تنهدة ، ثم رفع رأسه وثبت عينيه في السقف . وهنا دخل ييزوف رئيس
قسم الموظفين وأقبل نحوه فألقى إليه بكلام لم يعِ إيفان منه شيئاً ، فزوى
يزوف الساخر إحدى عينيه الصغيرتين وقال في صوت مرتفع :

« أحلام النهار أيها الصبي . . من تكون التي تفكر بها يا ترى .. أرجو أن
لا تكون مروسيا ! زوج طوال هذه السنوات وما زلت تحلم بامرأة . الأفضل أن
تكون على حذر وإلا أعلمتها » . ثم طعن ييزوف إيفان مازحاً في أضلاعه .

فنظر إيفان إليه بعيون ساهمة . آه زوجته يجب أن يخبرها . وكيف
يستطيع أن يفعل .. لقد كانت عليلة خلال بضعة الأيام الأخيرة . وقعت
مريضة قبل السنة الجديدة بقليل ولم تُشف مما ألمَّ بها إلا البارحة ، فاستأنفت
عملها . ولقد خضعاً معاً قبل هذا إلى قلق خفي لم يفض أحدهما به إلى صاحبه ،
فإن متيا لم يكتب منذ بعيد ، وإنهما ليقتربان من حادث ذي أهمية خاصة :
أن عمر متيا يبلغ العشرين في الأسبوع القادم .

كان مولد متيا دائماً أعظم أحداث السنة . ولم تنِ العائلة عن الاستعداد
المستمر له قبل حلوله بزمان ، فكان الأبوان يبتاعان الهدايا وكانت الأم تصنع

كمعكة الميلاد الخاصة ، وكان متيا نفسه يشترك فيفاجيء الأبوين مفاجأة لطيفة . وقد مضت سنتان الآن كان الأبوان خلالها يحيمان هذه الذكرى دون متيا نفسه . لكنه كان دائماً على كل حال يبعث بتحرير ، فإذا ما جلس الأبوان وضيوفهما إلى المائدة ركزا التحرير الذى وجهه إليهما بخط يده إلى جوار كمعكة العيد .

وكان هذا التحرير العزيز يتلى بالطبع فى صوت عال بضع مرات أثناء المساء فيصغى إليه كيريل إللش ، وهو صديق قديم للعائلة ، إصغاء عميقاً ويسرّح شاربه الضخم الذى وخطه الآن شيء من الشيب كما يمسح من آن إلى آخر دمعة تنحدر من عينيه الشهاولين النافذتين . ثم يتلفت حوله يفتش عن شيء يكسره توطيداً للطالع السعيد . كان يفعل ذلك كل عام منذ كان متيا طفلاً صغيراً . أما الآن فإنها الحرب وإن ما يكسر لنادر جداً !!

وكانت ماريا نقولا يثنا تجهز نفسها لعيد متيا الميلادى مرة أخرى ، لكن ليس من تحرير هذه المرة .

... وتطلع إيفان إلى ساعة الجدار . كانت الثانية وسيكون بعد ثلاث ساعات فى بيته فترقبه ماريا وقد أعدت مائدة العشاء .. وسيدخل البيت و.... وتنهد تنهداً ثقيلاً ثم انعطف إلى عمله . فلما نظر إلى الساعة مرة أخرى كانت الرابعة . ما أعجل ، ما يمر الوقت اليوم !

وانتهى اليوم . فما كان أحب إليه لو أن شيئاً يحجزه : اجتماع أو مؤتمر . لكن لا فإن الكتبة أخذوا يخلون أما كنهم وفى بضع دقائق يفرغ المكتب ويظل وحيداً . وجلس بلا حراك حتى أغلق الباب من خلف آخر موظف . ثم حاول النهوض ، لكن ساقيه تراختا من تحته فوقع على كرسیه ومال برأسه إلى الطاولة واسترسل فى حزن بالغ . فلما انكشف حزنه نهض وأخذ يتأهب للمضي

إلى بيته . وشعر أنه أهدأ من ذى قبل ، ولعله يهون عليه الآن أن يسوق النبأ إلى زوجته .

مضى إيفان إلى البيت من حديقة المدينة كما اعتاد أن يفعل ، وكانت الأغصان مشرّبة يعلوها ثلج ناعم . وانحاز عن الطريق الرئيسى يطيع هواه ، فانتهى إلى باحة صغيرة كانت قد نظّفت مؤخراً من الثلج ، فجلس فيها ونظر حوله فما كان أشد تأثره حين رأى كل شيء أليفاً عنده قريباً إلى قلبه عزيزاً عليه . فعلى المقعد الذى يجلس عليه الآن اقترح الزواج على ماريا منذ سنوات عديدة ، وكانت أزهار الكستنا قد تفتقت براعمها فترأت له الأزهار الكبيرة أشبه بالشموع وقد أضاءت تلك الباحة . وكان الهواء مفعماً بالرائحة الزكية التى تنشرها الأعشاب كما كان يتجه من النهر صوبه نسيم منعش ندى ، وذكر أنه كان قد جلس إلى المقعد نفسه بعد ذلك بعام أو بعامين هو وزوجته ، ومتيا إلى جوارهما . وتخيل متيا يبلغ الثالثة من العمر ثم الرابعة ، يطفرو ويلعب فى هذه الحديقة نفسها . ثم رآه غلاماً يمشى فى الطرقات ، ثم يافعاً ذا نظرات حاملة وملايح مرهفة .

ومرت الأيام والحياة مرها المألوف عاماً بعد عام ، وتنقلت الطبيعة من فصل إلى فصل ، وتغيرت آمال هؤلاء الناس البسطاء ورغائبهم . ثم ذكر إيفان أنه مر بهذه الحديقة فى أحد أيام الصيف المنصرم وتخطّر أثناء ذلك ما تورد هذه الحديقة إليه من الأفكار ، فوقع أسير خيال صور له الوقت الذى تنتهى فيه الحرب فيتهدى متيا فى هذه الطريق نفسها مع الفتاة التى يحب . ثم تراءى له تحت الشجرة الوارفة نفسها رفيق آخر يقف هناك فتنظر إليه ماريا وينظر إيفان وهما يقتعدان المقعد نفسه — ينظران فى زهو وخفة إلى الرفيق الصغير الجليد وهو يتخلّق ؛ وتراءت له الحياة وهى تفيض فتجود بحياة أخرى أعلى وأثمن

من حياته هو ؛ ثم تراءت له الحياة كلها مطردة الفيضان في جدول بطيء عميق عذب غير عنيف . أما الآن فإن كل شيء قد تحطم . . إن الجدول قد جف وغشيت يد الموت كل شيء ...

وكان قلب إيفان في جوفه أشبه شيء بالرصاص . فإن عليه الآن أن يذهب إلى البيت وأن يطعن قلب زوجته بمديّة ماضية .

ولقد بلا إيفان مبلغ شجاعته ومبلغ ما تستطيع أن توارى حزنها وتجد الصبر والعزاء تشيع بهما السرور في نفوس الآخرين .

كذلك كان الحال دائماً . أقص مضجعيهما صمت متيا الطويل ، ولكن كلاهما جاهد جهاد الأبطال ليخفي ما أحس به من الآخر . وقالت له منذ قريب : « إن من الناس من لم يسمع أشهراً شيئاً ، وإن منهم من لم يسمع من أول الأمر ، فعلينا أن نلوذ بالصبر » .

وتبادلا في الصباح قبل الشروع في العمل كلمات عن الاستعداد الواجب لميلاد متيا . واختلفا على غير عادة في مسألة ، فقد ألفا أن يدعوا الأصدقاء لقضاء المساء عندهما ، ولكن ماريا اقترحت أن يحتفلا بالعيد وحدهما هذه المرة ، فقد تغيرت الأيام . أما إيفان فقد رأى أن المرء في مثل هذه الأوقات العصبية يستطيع أن يجد العزاء والراحة عند أصدقائه الخلّص . لكن ماريا التي كانت تعاني بقايا مرض ألحت على رأيها . فاتفقا على أن يدعوا كيرل إيلش وحده .

وبعد قليل نهض إيفان ومشى متهادياً إلى البيت ، فلما مر بأبواب الحديقة الصغيرة شق عليه أن يفهم كيف مر من هذا المكان منذ أقل من تسع ساعات ، حين كان يقطع الطريق نفسه إلى عمله ذلك الصباح . وأحس بأنه متعب هرم . لم تبقى إلا خطوات حتى يصل إلى البيت . وكان من قبل يقطع المسافة

دون أن يفكر فيها . أما هذا المساء فقد بدا له الطريق طويلاً لا حـد لـطولـه ، وأن رجليه مثقلتان بالرصاص وأن نفسـه يتـحشـرج كأنـما ينوء بـثقل عـظـيم . وكان المارة ينظرون إليه فاحصين ، فلما انعطف عن الزاوية رأى بيته الصغير الأسمر بنوافذه الثلاث ورأى السياج الخشبي الواطئ يعلوه الثاج ، وقد مال بأغصان التفاح . وقدر ، فصمم أن لا يخبرها اليوم ، فلعل غداً أفضل ، أو لعل يوم مولد متيا نفسه يكون أفضل ، وعندئذ يرى ما يصنع ، فإنه لم يستطع أن يحرمها فرحة ذلك اليوم ، فليبق يوماً جميلاً في أيامها أو ذكرى يوم جميل على أقل تقدير . وسيكون المجال ذا سعة فيلقى إليها بالنبا العظيم وقتاً من الأوقات . لا داعي إذن للسرعة ، بل لعله أحكم ألا يعلم كيرل اللش شيئاً . إنه رجل حساس ، فإذا علم الخبر انهارت قواه .

فلما أبرم هذا شعر براحة . ودخل البيت في خطى خفيفة ، وأعد نفسه لمقابلة زوجته دون تعجبهم . لكن مرآها الأصفر وخزه وخزة أئمة . لله ما بدت مريضة معنية حتى فقدت عيناها الزرقاوان الجميلتان لمعانهما ! ولله ما أعجب أن لم ير هذا من قبل . إن مرضها قد ذهب بها ذهاباً . وبدل أن تأخذ الأمر على علاقته أضافت إلى مشقاتها مشقات أخرى . تناولت غداها مسرعة ثم خرجت في وقتها قبل أن يستطيع اعتراض سبيلها أو الاحتجاج عايبا . وهضت الأيام ، فكان مولد متيا كلما اقترب أوحى إلى إيفان إحساساً عنيفاً بأن ذلك سيكون أفجع أيامه . ولم يدر في الواقع كيف يمكن أن يحمل المصيبة أو ينهض بكأس متيا ويشرب نخبه ، دون أن يفصح أمر نفسه .

وتخيل أن ذلك اليوم قد لا يأتي إلا وتكون آلامه قد خفت بعض الشيء . لكنها على العكس قد زادت . لعل ذلك لأنه احتملها وحده ، فإن الصمت لا يطاق حين يعتاج قلب المرء بالحزن . كان عليه أن يشترك في العبء مع

إنسان آخر ، إنسان لا يكون وقع النبأ عليه قاسياً جداً . ففضى إلى كيريل اللش ، فبكى الرجلان بكاء مرّاً في بيت كيرل ووافق كيرل على أن الأم يجب ألا تعلم حتى يمضى يوم المولد .
وفيم السرعة ..

وكانت صورة متيا مرتكزة على طاولة كيرل فنظر إيفان فقال : « إنه صورة من مروسيا » . ثم أردف وهو يضحك بمرارة « يقولون إن الأبناء الذين يشبهون أمهاتهم يسعدون ! »

وحلق كيرل بعينيه العميقتين فقال : « لا أدري شيئاً من ذلك ولكننى أدري أن أى شاب يشبه امرأة مثل ماريا يكون قد كتبت له الأمور العظام » .
ثم زفر من أنفه في حس مسموع ، وقال :

« ولقد أشبهك في هذا أيضاً فلانى أعتقد أنه لم يكذب في حياته مرة واحدة » .

« أجل » : قال إيفان في رقة : « كان كذلك منذ نعومة أظافره » .

قال كيرل : « ذلك جزاء التربية الحسنة أيها الصديق » .

« لا أدري جزاء أى شيء . لقد أوقعنى أنا نفسى أحياناً في موقف معيب .

فأنت تعلم كيف يتجاوز الإنسان مرات عن كذبة بيضاء تفرط منه وهو لا يعلم . فلو وقع لك ذلك مرة كان لزاماً على متيا أن ينظر إليك بعينيه النافذتين المعروفتين ، فتجد نفسك وقد غمرك الحياء ، كأنك طالب مدرسة . ولقد كان دائم الانهماك والاستغراق في أفكاره ، وكنت أعجب ، ماذا يدور في ذهنه يا ترى ، لم يفض بمكنونه إلى أحد حتى إلى أمه مع أنه كان مخلصاً لها متعلقاً بها ، شديد التعلق » .

وحلق إيفان في صورة الابن بهلوه . كانت العينان كبيرتين مليئتين

بالتوثب . أما الشفتان فزوممتان بشدة . والآن أغلقنا إلى الأبد ، ولن يعلم قط ما كان يراود عقل ابنه .

وأخذ يوم الميلاد يدنو رويداً رويداً . وكان تفكيره في أنه سيفضطر إلى أن يبوح بسر المظلم العميق في ذلك اليوم يملؤه رعباً . لم يكن بينه وبين امرأته خلال حياتهما المشتركة الطويلة سرما ، فتمنى على الله أن لا يحل ذلك اليوم الرابع . ولكن اليوم الرابع حل أسرع مما توقع . وفي الصباح هنا إيفان وماريا أحدهما الآخر بيوم مولد ابنيهما تهنئة رقيقة ، ثم نفر إيفان إلى عمله وقد أحس بأن عبئاً ثقيلاً قد انحط عن كاهله لأن المهمة الأولى قد انقضت . أجل إن ماريا لم تبرق عيناها الذابلتان ولم يتفتح حياها بالسعادة المعهودة ، لكنها بدت في وضع ينم على صبر متكبر . إنه يوم ميلاد متيا ، لكن ليس من تحرير إلى الآن . وانقضى بسرعة شديدة نهار الشتاء القصير ذاك ، وأقبلت الساعة الرهيبة . واستدعى إيفان كيرل أثناء عودته إلى البيت ، فقد شعر بأن لا احتمال له على دخول البيت وحيداً ذاك المساء ، ولا على الجلوس إلى مقعده على مائدة الميلاد دون صديق يدعمه .

فلما أقبل على البيت هنا زوجته مرة أخرى وقبل شفتيها الباهتتين . وقدم إليها كيرل باقة من الزهور وانتقل بسرعة إلى الحديث عن الطقس . وشربوا نخب متيا ونخب البلاد ونخب الجهة . ومضى كل شيء في سبيله السوى . وُضع على المائدة مصباح غشي بغطاء من الحرير الأزرق وفرش على الأرض بساط وشي بالألوان احتفاء باليوم العزيز الغالي . ونسقت الزهور في إناء تجاه صورة متيا . وكانت الليلة صافية الأديم ، فانسابت من النوافذ حزمة من شعاع القمر اتخذت سبيلها إلى الأرض .

وأخذوا يتحدثون على المائدة شجوناً من الحديث لا يكادون يذكرون متيا . وفي هذه الأثناء نهض إيفان ليساعد زوجته على رفع ما على الطاولة .

فخطا نحو ضوء القمر النافذ إلى البساط ، وانفجر فجأة عن تنهدة عميقة وبدأ جسمه يختلج كأن أحداً لكه لكمة عظيمة في صدره ، فسقط على أقرب كرسي إليه ، فأسرعت إليه زوجته وأسرع صديقه ، لكنه غطى وجهه بيديه وأخذ يبكي بكاء الطفل وينشج في حرقه نشيجاً متداركاً .

« متيا الحبيب ، متيا الحبيب ، قد مضى !! »

ثم عاد إلى نفسه ، وتحول في انكسار بالغ إلى ماريا يريد أن يعزيها ، فوجدتها قائمة إلى جواره تحمل في يدها زجاجة الدواء وتنحدر على خديها الغائرين دموع غزار .

« يكفي .. يكفي يا فانيا » . همست بذلك في نعومة ورقة . أما كيرل فوقف عند النافذة ينظر ساهماً إلى التلال وقد غطاها الثلج بلون فضي ، ويمسح شاربه ، وقد أخذت الدموع تبلله في سرعة لا يستطيع أن يجاريها .
« منذ أسبوع علمت بالنبأ » — نطق إيفان بهذا ثم توقف فجأة... « لكن لم أتمالك ... »

ففضت ماريا إلى الخزانة دون أن تنبس ببنت شفة ، واستخرجت تحريراً من مؤخرتها ثم قالت :

« هذا هو تحرير متيا ، التحرير الأخير . لقد ورد قبل رأس السنة الجديدة بقليل ، وطلب إلى أن أتلوه عليك فيما بعد ، هذا هو » . فأخذ إيفان التحرير ليقرأه ، فارتعشت يده ارتعاشاً شديداً ، فتناوله كيرل منه ووضع نظارتيه على عينيه ، وأخذ يتلو في صوت مرتفع . كانت التلاوة مضطربة . نعم ، وكان صوته أول الأمر ثابتاً لكنه بدا فيما بعد وكأن الكلمات تتوقف في حلقه ، فهز رأسه الأبيض ومسح نظارتيه ، وتابع يتلو تلاوة واضحة في صوت غضوب :

« أمي الحبيبة » .

تلك كانت بداية التحرير .

« اقرئ هذا التحرير وحده أولاً ، وستعرفين السبب فيما بعد . إني أكتب إليك في هذه الأيام المرحّة — أيام الانتصار .

« إن الشمس لمشرقة ، تغمر المعسكر وتغمر مخدعي وتغمر فراشي ، وأنا أكتب . كل شيء حولي أبيض بياض الثلج . الجدران بيضاء وكذلك السقف وأغطية المخادع . ومن النوافذ أيضاً يبدو كل شيء أبيض ، والدخان يتصاعد متعرجاً أبيض من سطح أبيض . كان يملأ ذهني طوال الصباح صورة نوار التماح الأبيض هذا في حديقتنا . أن كل عرق دقيق فيه لينبض بالحياة ، وإن كل بذرة المليئة بنسم جديد . وإنها لتنتصب فوق أغصانها الراححة إلى الأرض في شيء من الحزن . وفيما أنا أراقب الدخان يتثنى برفق ومرح إلى السماء أجد نفسي تمتلئ بخواطر الموت والحياة .

« لقد جئلت في حلبة الموت قرابة سنتين وبرزت أقابل الموت وجهاً لوجه مرة ومرة ، ولكنني الآن لن أخطئه مرة أخرى .

« لن يكون هذا التحرير طويلاً لأنه يستعجلني ، وإن يكون منسجماً لأنه يهيجني . أما عن الموت فسأحدثك بعد هنيئة ، فإني الآن أود أن أتحدث عن الحياة أيتها الأم العزيزة .

« كنت أتعلق بأهداف أثيرة كثيرة . ولم أكن أدري ما إذا كنت أحقق جزءاً ضئيلاً منها لو كتبت لي أن أعيش الحياة العادية ، بمداهها العادية . كنت أظن أن الفشل والمستقبل الغامض الأليم ينتظراني . لكن أمنية واحدة كانت أثر عندي وأعز من كل أمنية . كنت أزمع القيام بعمل عظيم . عمل تشكرني بلادي من أجله دائماً أبداً ؛ عمل يحمل أبي ويحملك أنت على الفخر بي . تلك هي السعادة الكبرى فيما أحسست التي تجعل الحياة عندي جديرة بأن تكون حياة .

« فلما بلغت العشرين من عمرى أدركت أن حامى لم يتحقق . فلقد رأيتني شاباً عادياً مثل غيرى من ملايين الشباب ، لم يكتب له شيء غير عادى . إن مجال التخصص الذى اخترته - التاريخ والفلسفة - لم يفسح طريقاً إلى المجد . إنه لم يفسح أملاً قريباً على كل حال . وكان الموقف محزناً لكنى لم أستطع منه إفلاتاً . وبقيت أمنيئى فى الحياة بعيدة المنال .

« والآن تجيئنى هذه الأمنية طائفة مختارة ، فلقد قمت بعمل عظيم ، عمل تقدرنى بلادى من أجله بعد موتى وتفخران به أنتم أيها الوالدان العزيزان . ولقد أعلم الآن أن من توضحيات المرء التى يقدر عليها جميعاً ، ليس أعظم من توضحيته نفسه فى سبيل بلاده . أقول ذلك أيها الحبيبان لا لأعزيكما ، فليس هذا التحرير إلا اعتراف قلب محب ، قلب يطفح الآن فرحاً . وسيتوقف هذا القلب قريباً عن الخفقان ، لكن آخر خفقاته ستكون مفعمة بالسعادة تشع عليكما وعلى بلادى ، سعادة تدوم بعد أن تكون خفقات قلبى قد انتهت . إني أحب إليكما أيضاً أن تستشعرا من هذه السعادة شيئاً .

« وإني لأعلم أيها العزيزان أن الألم سيعشى سعادتكما بادئ الأمر وإني لأخشى أن يؤثر الخوف فى قلب أبى ولذلك أكتب لك أنت أولاً يا أماه . فلقد كنت أقوى دائماً وأصبر ، فلتمهذى الطريق له . أعلم أنكما ستعرفان دموعاً حرة وأنكما ستبكيان بكاء مرّاً وأن فؤاديكما سيفرغان من الشوق إلى ، لكن لا تجزعا أيها العزيزان فإني سعيد حقاً .

« ستعرفان من الناس تفاصيل ما وقع لى ، وسيدلونكما على قبرى . وستزورانى مسرعين تبكيان على مشوى وليكما لأن ذلك حق الأبوة والأمومة المرّة . أما الفرحة لذلك والافتخار بذلك فحق الأقلين المحبدين .

« ولقد أحببت بلادى حباً حاراً دائماً . أحببت أنهارها وأوديتها ، كما

أحببت كل طريقة من حشائشها وتعهدت هذا الحب بدمى هذا الذى أورتهمانى .
إن فى نفسى أشياء كثيرة أفضى بها إليكما . أما الآن فمفسر على أن أفعل
ولأسترح قليلا ...

« إنى أحسن حالا الآن . لقد أرادت الممرضة أن تأخذ منى أوراقى التى
أكتب فيها ، فرجوتها أن تتركها لى زمناً أطول . إن قواى لتبهبط ، لكن
السعادة تضىء نفسى .

« ما زلت أشعر بالقوة الكافية لأقول كلمات أخرى ، فسيذكرنا الظلام
عما قريب وسأضطجع أفكر فيكما . أراكما أمامى فى مقعدنا من البيت .
وأرى المدفأة بقرميدها كما أرى الزهور التى تحبين والأريكة القديمة ذات
الظهر الأحذب . ما كان أحب إلى أن أجلس معك مساء يا أمى حين كنت
صغيراً ، وما أشد ما أذكر ذلك كله . وإنى لأذكر أيضاً أن يوم ميلادى
يقرب ، وإنى لأعلم أن ذلك اليوم لا يحل إلا وأكون قد انتهيت . فلا تخبرى
أبى أيتها الأم العزيزة حتى ينقضى اليوم . فليحس أنى معه يوماً آخر على الأقل .
ولتذكر فى ذلك اليوم الذى يمكن أن ينتشر فيه لواء الفرح فى بيتنا إن أياماً
مشرقة قد تبلغ فجرها على بلادنا ، لأن العدو قد جرح جرحاً مميتاً .

« وشىء آخر ، أحب أن أقول . إنى أترك بلادى دامية خربة ، أتركها وما
يزال بى ظمأً للانتقام لا ينطفىء . إن مئات وآلاف أخرى من جثث العصابات
ستندس أراضينا وأنهارنا بدمائها الحبيثة ، لكن ذلك لن ينهى الأمر . لن
يخلصوا بسهولة كهذه . إن يوم العقوبة آت . ولن يكون من حظى أن أحيا
الحياة الجديدة تلك التى كسبنا . لكن حظى أكبر إذ جعلت نفسى فداء
هذا كله .

« وداعاً أيها الحبيبان ! إنى أتم الشفاء التى هدتنى طريق السعادة ، أقبل

العيون التي رنّت إلىّ بحنو ومحبة، فاذا كراني عند أصدقائنا عامة ، واذا كراني عند
 عمنا المخلص خاصة . »

وهنا تهديج صوت العم كيرل وتوقف ، فأتمت ماريّا التحرير عنه .
 « عاد إلينا إذن ابننا متيا في النهاية » . قالت هذا ثم طوت التحرير وأضافت :
 « سيكون دائماً معنا » .

وانحدر القمر ، وانتهى يوم متيا ، واستمر الثلاثة يتحدثون ليلتهم الشتوية
 الطويلة تلك إلى الفجر حديثاً هادئاً ناعماً كأنهم يخشون أن يوقظوا أحداً .

808.83:A51A:c.1

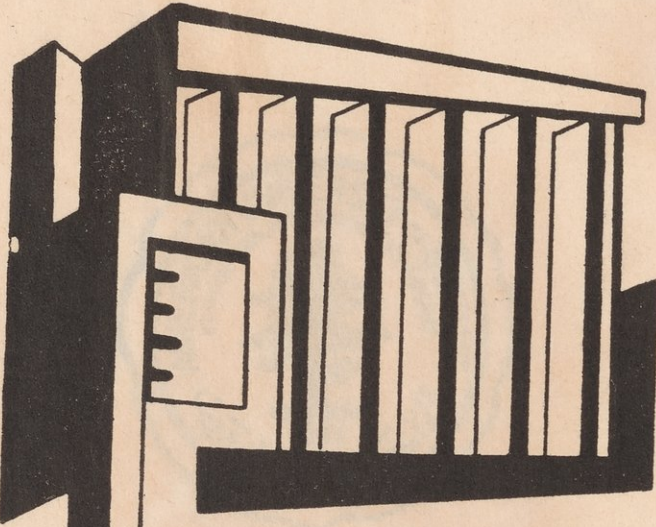
العامري، محمد اديب

شعاع النور وقصص اخرى

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01030490



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

